رافائيـــل ألبـــرتي
ثلاث مسرحيات
الرجل الخاوي
لاكاياردا
ليلة حرب في
متحف البرادو
تقديم وترجمة عن الإسبانية
ميادة مصطفى سامح
2023
نجمة
للنشر الإلكتروني

رافائيـــــل ألبـــــرتي

ثلاث مسرحيات

0 الرجل الخاوي

0 لاكاياردا

0 ليلة حرب في متحف البرادو

تقديم وترجمة عن الإسبانية

ميادة مصطفى سامح

2023

نجمة

للنشر الإلكتروني

كوبنهاغن

shakerhussein@yahoo.com

مقدمة

يعد الشاعر الأندلسي رافائيل ألبرتي ميريللو(1902 – 1999)، من بين أهم الشخصيات الأدبية لما يسمى بالعصر الفضي للأدب الإسباني، وللحديث عن ألبرتي لابد من الإشارة إلى السياق التاريخي الذي أدى إلى ظهور جيل الـ"27"، الذي يعتبر ألبرتي من أبرز مجايليه، والجدير بالإشارة هنا، أن هذا الجيل لم يكن مقتصرا على الشعراء فقط بل انضم إليه كثير من الفنانين التشكيليين، وكان من بينهم سلفادور دالي، وفي مجال السينما لويس بونيل. فالتقلبات السياسية (1918–1939) كإعلان الجمهورية وانقلاب الجنرال بريمو دريفيرا ثم عودة حكم الملك الفونسو الثالث عشر، والتغيرات الاجتماعية أحدثت أثراً كبيراً في حياة الفرد الإسباني.

لقد شاءت المصادفة أن اجتمع حشد من الكتّاب لإحياء مرور ذكرى مرور 300 سنة على وفاة الكاتب غونغرا، فكان ذلك اللقاء بداية التغيير الفكري العقائدي، لاسيما وقد تزامن مع بدايات العقد العشرين الذي شهد حركات فكرية متنوعة ساهمت إلى حد كبير في تغيير متجهات بوصلة وأهداف الأدب والفن في الحياة، ومما جاء في الكلمة التي ألقاها ألبرتي في تلك المناسبة: إن *الاحتفال بذكرى غونغرا جاء في الوقت المناسب، فتجلياته الشعرية عبدت الطريق لدخول تلك المتاهة في غابتنا الشعرية ثم ساعدتنا على درء السوء .*

في الحقيقة كان أغلب أبناء ذلك الجيل من حملة الشهادات الأكاديمية العالية، وكانت أعمارهم التي تراوحت مواليدها ما بين (1892–1902) متقاربة إلى حد كبير، وقد انخرط أغلبهم للعمل في مجالي الصحافة والتعليم، هذا إلى جانب التزامهم الخط السياسي اليساري التقدمي الذي بدأت بواكير انتشاره تظهر في أوروبا خلال وبعد عام 1929، كما أنهم لم يكونوا على توافق ووئام مع الرؤى والنزعات الثقافية التقليدية سنينئذٍ، وهذا ما دعاهم إلى الوقوف في الضد والتمرد على كل قيم تلك الثقافية، بما في ذلك الموروث الاجتماعي الإسباني المهيمن على طابع الحياة خلال تلك الفترة.

وتبنى جيل الـ" 27 " منهجاً جديداً لابتكار أشكال أدبية وتعابير مختلفة تتماشى وسياق التيارات الفكرية التي اتسمت بها الحياة الثقافية حينذاك كالسريالية والدادائية، لذلك نجد أن أغلبهم سعى للبحث عن فهم جديد لمحيطه الاجتماعي الذي انغمر بالآيديولوجيات، والحركات السياسية التي انتموا إليها. وحقيقة، نستقرئ من كل ذلك أن الهدف من السعي المحموم لرواد ذلك الجيل، إنما يهدف إلى خلق مفاهيم ومعايير وصيغ فنية وأدبية إبداعية جديدة تتخطى كل الأساليب التقليدية المهيمنة فترتئذ على عموم الحياة

الإسبانية، فكتبوا بلا قيود بأسلوب لغوي معاصر حتى أمسى لهم معجمهم الخاص، الأمر الذي ميزهم عن الأجيال الأدبية والفنية التي سبقتهم، ليس في مجال توظيف لغة تعبيرية معاصرة فحسب، بل في توظيف الرموز أو الاستعارة اللغوية التي تتماشى مع التيارات الفنية الجديدة، كالسريالية، والدادائية التي تبناها أغلب ذلك الجيل للترويج عن فكرهم الجديد. أما مضامين كتاباتهم فقد تمحورت حول الهموم الإنسانية عامة كالحب والكون والقدر والموت والمدينة التي تمثل لهم التقدم العمراني والفكري لتلك الحقبة وتحديدا مدينة نيويورك التي اعتبروها نموذجا حيا لذلك التغيير. لكن بالرغم من الانفتاح الفكري لجيل الـ "27" غير أنهم ابتعدوا عن الحديث في بعض الموضوعات الاجتماعية التي كانت تعتبر "تابو" محرماً حقبتئذٍ، ومن بين تلك التابوات على سبيل المثال لا الحصر المثلية الجنسية.

ومع أنهم كانوا يتطلعون إلى الحداثة والتجديد، لكنهم في الوقت ذاته قطعاً لم يغضوا الطرف، أو يهملوا الأدب الكلاسيكي، ولهذا تجدهم صبوا اهتمامهم على كتّاب العصر الذهبي مثل غونغرا وكيفيدو ولبوه دفيغا... وآخرين غيرهم، فكانت كتاباتهم مزيجاً بين الموروث والحداثة. لهذا السبب نجد في نصوصهم أشكالاً نموذجية للشعر الكلاسيكي وعناصر مجددة تميزت بها الحركة الأدبية الطلائعية، بمعنى أدق أنهم سعوا لتحقيق توازن بين العواطف الإنسانية والفكر الجديد لإنتاج أدب مفعم بالهموم الانسانية والجمال.

لقد أحيا جيل الـ "27" قصائد الرومانس الإسبانية، وترانيم أعياد الميلاد القشتالية المعروفة لدى المتلقين في القرنين الخامس والسادس عشر الموصوفين بالعصر الذهبي، وفضلاً عن ذلك أعار رواد الجيل اهتماماً خاصا للكتّاب البارزين المرموقين، آخذين بعين الاعتبار أن الاستعانة بالكاتب غونغرا على سبيل المثال سيعينهم على تغيير بنى الخطاب الشعري وتجديد نمطه التقليدي، وتبني من بين كتاب القرن التاسع عشر منهج لوبيه دفيغا وكيفيدو للحفاظ على المشاعر الحميمة تجاه تفاصيل الحياة اليومية كالأسرة. ومن بيكر استخدام الرموز والتراكيب اللغوية الرمزية، ومن روبن داريو فهم الواقع وتحويله إلى خيال شعري بل حتى إلى حلم، أما من أنامونو وانطونيو ماتشادو فاستخدام الرمزية في الشعر. لكن بعد اعدام الشاعر كارثيا لوركا برصاص القوميين في العام 1936 تشتت هذا الجيل بسبب الحرب الأهلية الإسبانية.

لقد تبوأ ألبرتي مكانة بارزة بين جيل 27 بعد أن حاز على جائزة الشعر الوطنية عن ديوانه بحار في اليابسة، حيث استمد أجواء قصائده من نشأته الأولى في مدينة قادس وشواطئ قريته وميناء سانتا ماريا القديم. وأطلق عليه النقاد على سبيل المثال بعد أن عاش حياة معقدة وغزيرة التفاصيل ألقاباً كثيرة، لعل من أبرزها: "شاعر المنفى بامتياز"، "الشاعر المجاهد"، "الضمير الدولي للمهمشين"، "صرخة المظلومين"

وهذا ما دعا الكثير من المجلات والدوريات الأدبية خلال عقدي السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي إلى نشر العديد من الدراسات النقدية حول تجربته الشعرية المتفردة. وإضافة إلى ذلك اعتبره الإسبان رمزاً للحرية، ثم لتتناسب كل تلك الألقاب مع الحياة الإسبانية الضاجة بالإنتاج الفكري والمشاكل السياسية والاجتماعية سنينئذٍ. ولربما يحمل كل لقب توصيفاً لإحدى سمات ألبرتي الشخصية لكن تبقى سيرته الذاتية أشد غزارة، وأعماله لا يمكن إيجازها بمجرد فكرة عابرة أو انطباع نقدي عام. فعمله الأول الذي نشره قبل هجرته لأسباب سياسية اعتبره النقاد جزءاً من شعر المنفى لما فيه من انتفاضة وتمرد على واقع حياتي معيش تقاطع معه منذ طفولته، ولهذا جاءت أغلب مضامين ومحمولات أشعاره ترمز في ثناياه إلى شخصين مهما توازيا أو تباعدا واقتربا، ظلا يمثلان ألبرتي الذات الإنسانية بكل ما تحملان من أبعاد ومعانٍ حياتية. ولعل من أبرز ما يمكن الإشارة إليه هنا هو رؤيته المغايرة للأندلس، فهي بالنسبة إليه على وفق تلك الرؤية أندلس أخرى من حيث جبالها الموحشة وشواطئها الكئيبة، حيث أشار النقاد إلى سمتين أساسيتين تميزان أعماله، وهما الظلمة الداخلية، والمنفى الذاتي حتى قبل رحيله عن إسبانيا. فالظلمة جاءت من النشأة الأولى في المدارس اليسوعية حيث القوانين التربوية الصارمة التي ولدت لديه مشاعر سلبية تجاه بعض القيم والمثل الاخلاقية والنزعات الحياتية، ولهذا نجد في كتاباته المبكرة واللاحقة حضوراً احتجاجياً قوياً بوجه الدين وخطاباته المتعلقة بالإنسان والحياة عموماً. وقد عبر ألبرتي نفسه عن تلك الإشكالية الداخلية في إحدى مقابلاته قائلاً: "إنّ *إلقاء نظرة على مدينة قادس يملؤني بالذعر والدهشة على حد سواء*".

في الحقيقة لم تعد هناك مساحة لممارسة حياته الطبيعية كطفل جراء التحذير من عقاب لا يعرف أسبابه كما تعلم في المدارس اليسوعية، ولذلك ما أن أمسى على عتبة مرحلة شبابه حتى تفاقمت مخاوفه من ذلك العقاب المجهول الذي ظل يراود ذهنيته الفتية، خاصة بعد أن انتقل مع عائلته إلى مدريد التي شكلت شعوره المبكر بأزمة اغترابه الروحي الخانق مع بدايات المرحلة السريالية في كتاباته، وهذا ما يفسر لنا سعيه إلى تحقيق التوازن ما بين الموروث الشعري الإسباني من جهة، والتيارات الشعرية والأدبية الجديدة المعاصرة، فتلاشت الصور القديمة وظهرت مواضيع جديدة أكثر تعلقا بالحاضر الجديد.

إنّ ذلك التحول المفاجئ، وغير المتوقع في خضم ذلك الاحتدام، وتلك الدوامة، حفّزه على انتاج ديوانه الشعري عن الملائكة، ولا غرو في ذلك إذا ما عرفنا أن أغلب رواد جيل الـ" 27 " قد تبنوا تيار الحداثة والمعاصرة في الأدب الإسباني الجديد.

لكن ذاكرة ألبرتي ظلت تحتفظ بتلك الرموز الشعرية لصور البحر الأندلسي وميناءها القديم على مدى سنوات غربته، فهي لم تكن مجرد وصفٍ شاعري، بل إحساس عميق مدفون في ذاته، وهذا كما يبدو قد خلق لديه شعوراً شبه يقين أنه لن يعود إلى مكان صرخته الأولى: مسقط الرأس، هذه الهواجس المتذبذبة ما بين الايقاع الشعري الداخلي والصورة الخارجية اندمجتا سوية فشكلت قصائد ألبرتي التي أمست فيما بعد هويته الشعرية الخاصة به، ولكن بالرغم من أن بداياته كانت في مجال الفن التشكيلي، إلا أنه سرعان ما هجره ليلوذ بعوالم الشعر، وبهذا الخصوص يؤكد ألبرتي نفسه قائلاً: *"أصبحت على يقين في كل مرة أن اللوحة لم تعد تكفيني كوسيلة للتعبير، لأنها لم تعد تسعفني لأنني لم أجد وسيلة لأضع كل ما يغلي في مخيلتي داخل إطارها، لقد وجدت نفسي على الورق ، حيث من السهل أن أتقلب على ذوقي، أو لأعبر عن مشاعر لا تمت بعلاقة للتشكيل الفني". ويقول ألبرتي في لقاء آخر: " حنيني للميناء البحري بدأ يتبلور بشكل آخر، ما لبثت أن أراها خطوطا وألواناً، لكنها تلاشت لما عجزت أن أعبر عنها بالفرشاة، فأخذت عهدا على نفسي أن أنسى رسالتي الأولى وأتفرغ للشعر".*

خلال إقامته الطويلة في الأرجنتين، وقبلها عاش فترة وجيزة في ايطاليا ثم فرنسا، غربة دامت أربعين عاما حتى عاد إلى إسبانيا بعد وفاة الجنرال فرانكو وبداية عهد سياسي جديد، استحضرت ذاكرته ثقافة أميركا اللاتينية بل جميع الأماكن التي عاش بها لكنه يعود ليتجاوزها وكأنه لا يقوى على التعايش معها فالمشهد الإسباني بقي متوهجاً في ذاكرته، فأستخدم تعابير تتناقض بعضها مع البعض حتى وصفه الشاعر بابلو نيرودا *(وردة حمراء أزهرت بأعجوبة في فصل الشتاء، إنه ندفة ثلج من غونغرا، برعم لكارثيلاسو، عطر حزين لبيكر)* وهذا الوصف يوجز لنا أهميته وقدرته الابداعية المتميزة عن بقية جيله.

ويعد ديوان ألبرتي "القرنفلة والسيف" الذي ضمَّ أولى قصائده من تجاربه الشعرية التي زاوجت بين ذاكرة مخزونة في أعماق نفسه، وأخرى كئيبة ملطخة بآثار الحرب، ولخَّصها ألبرتي بنفسه قائلاً: "بين الاثنين نحيا، من جهة رائحة الدم المتيبس المقهور، ومن الجهة الأخرى عبق شذى الحدائق، وفجر الصباح، وحياة طرية ومترابطة".

وأجدني، هنا، في تقديمي وترجمتي لألبرتي كاتباً مسرحياً متميزاً بين أقرانه من جيل الـ" 27 "، قد استقرأت أنه ابتكر مسرحاً لا يمت بصلة قريبة أو بعيدة للمسرح المتعارف عليه في عصره، فهو كتب مسرحيات قد لا تصلح للتمثيل على خشبة المسرح أصلاً فترتئذٍ، ذلك لأنه بحث عن صيغ جديدة كما فعل لوركا، لتكون البداية لولادة ما يسمى بمسرح الشارع، أي البحث عن جمهور آخر بعيداً عن جمهور المسارح المتعارف عليه في تلك الحقبة. ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن ألبرتي رسم من خلال قصائده

ومسرحياته الطريق لبداية الدعوة إلى ثقافة شعبية جديدة لم يستمدها من الحياة الاجتماعية بل من التراث الشعبي الإسباني. فحياته الصاخبة المتقلبة ولدت عنده فكرة مسرحة قصائده حيث أقام 350 حفلة توزعت ما بين أوروبا وأميركا برفقة جوقة من الممثلين نالت اعجاب الجمهور، وبعدها سعى لأن يجد علاقة بين الموسيقى والرسم فانتقل إلى مسرح الدمى، وكتب "ألوان ملونة" وهي أول مسرحية هزلية للأطفال (1926–1929)، تلك المسرحية التي أشار فيها النقاد لأول مرة إلى لغة ألبرتي المميزة. ثم توالت بعدها مسرحياته حتى جاءت الحرب الأهلية، ليبدأ ألبرتي مسرحه السياسي، فكتب مسرحية (من لحظة لأخرى) عام 1939 أي بعد انتهاء الحرب الأهلية الإسبانية وعرضت في بوينس آيرس حيث كان يقيم سنواتئذٍ. وتتحدث المسرحية عن شاب ينتمي لعائلة برجوازية ثرية لكنه ينتفض على الظلم الاجتماعي والاستبداد البرجوازي فيترك عائلته وينتمي إلى الحركة العمالية. ومن مسرحياته السياسية المشهورة(آدفسيو) التي كتبها عام 1944 في الأرجنتين وتتناول المسرحية قصة شابة يطلقون عليها في القرية (المغلقة) فلم يكن أحد يراها إلا بصحبة امرأة محجبة خلال قداس الصباح في الكنيسة، ثم توالت مسرحياته التي عرض بعضها في منفاه القسري، فيما لم يستطع عرض مسرحيات أُخر إلا بعد عودته إلى إسبانيا، منها (ليلة حرب في متحف البرادو) و(لاكاياردا) اللتان اخترت ترجمتهما.

المسرحية الأولى "الرجل الخاوي"(1931) تعد منعطفا في مسرح ألبرتي حيث جسد فيها بناءَ دراميا من التشكك الفلسفي الذي ساد بين المثقفين الأوروبيين، ابتداء من عدمية نيتشه إلى الأشكال التعبيرية والوجودية والمدراس الفلسفية الأخرى التي ضجت بها الثقافة الأوروبية في بدايات القرن العشرين، والتي أثارت جدلا واسعا بين الأوساط الثقافية الإسبانية لما تحتويه من عمق فلسفي يعبر عن مأساة الضمير، والعبثية الكامنة في حياة الإنسان، والتمرد والقلق الوجوديين اللذين يأمل بطل المسرحية من خلالهما إيجاد إجابة على جملة من التساؤلات.

حاول ألبرتي أن يشرح حالة الرجل المعاصر من خلال عرض مسرحي استخدم فيه رموزا متعددة استمدها من التراث الديني ومن قصص الحوريات ومن التراث الشعبي الإسباني وأساطير أخرى ليعبر بها عن مخاوف الإنسان المعاصر وما يواجهه من تحديات جراء التغيرات الحضارية التي مست حياته.

لقد استخدم ألبرتي التجاوز الأخلاقي الذي يفصح عن التمزق الداخلي للإنسان ما بين واقع تقيده سلوكيات وعادات تتناقض وشخصيته الحقيقية، وكما هي عادته أجاد استخدام الرموز فوظف الحواس الخمس باعتبارها شخوصا للمسرحية للتعبير عن وجه آخر للإنسان تجعله يتمزق بين وعيه الداخلي وواقعه الذي يحيا به.... لقد عبر ألبرتي عن الحالة الإنسانية من خلال البطل فوضعه في مركز الكون،

ليفضح بعدها نشاط الروح التي تحارب نفسها، فهو بلا إرادة تسيره أحاسيسه المتمثلة بحواسه الخمس لتكشف في النهاية عن حقيقته المختبئة في داخله، أي فشله في السيطرة على حواسه.

لطالما أقلقت مشكلة الحرية الأخلاقية ألبرتي، وبخاصة في ثلاثينيات القرن الماضي، فقد سعى الشعراء الإسبان في كتابتهم إلى التحرر الاجتماعي، ويرى الكاتب أن الإنسان محكوم عليه بعقوبة لا يمكن تفسيرها، فهو يحيا ويموت في دائرة أخلاقية محكمة، لذلك ينتهي العمل من حيث بدأ: يأتي الإنسان من الظلمة، من العدم، ويعود إليها في النهاية، وخلال هذه الرحلة يعجز عن السيطرة على كل ما حوله وعن ما في داخله بسبب قوى خفية لا يمكن قيادتها، قادرة على دفع سلوكه إلى الهاوية. لقد سعى ألبرتي إلى تأليف عمل مسرحي آيديولوجي اجتماعي متمثلا بالصراع المأساوي بمقاومة الإنسان لوعيه وإعلان عصيانه على ما تم تلقينه من مفاهيم وأعراف ورفض السيطرة الأخلاقية، ولابد من الإشارة إلى أن ألبرتي استخدم الكثير من الأبيات الشعرية التي وردت في ديوانه "عن الملائكة" والذي أيضا يعبر عن تشتت الإنسان في رحلته عبر العالم.

المسرحية الثانية لاكاياردا، عمل يذكرنا بالأساطير القديمة حينما يحصل لقاء ما بين البشر والآلهة لكن هذه المرة يكون لقاء حقيقيا ما بين ثور وامرأة عاشقة له، حب ولد كراهية ما بين الثور والرجل أدت إلى خصومة، أما الحبيبة التي يعشقها كل الرجال فهي تبحث عن الانتقام للمخلوق الذي أحبته وهو الثور.

كتب ألبرتي هذه المسرحية في منفاه الأرجنتيني، عام 1944 تحديدا في مدينة بوينس آيرس التي عاش بها أربعين عاما حتى عاد إلى وطنه إسبانيا. لقد نشأ الكاتب في أجواء أندلسية " حيث يلتقي المحيط الأطلسي مع البحر الأبيض المتوسط" فاستقى من الثقافتين الإغريقية واللاتينية، ولما غادر موطنه لم يكن بمفرده بل رافقه تراثه الإسباني وتحديدا الأندلسي، لأن المنابع الثقافية التي استلهم منها مسرحية لاكاياردا هي من نشأته الاجتماعية الأولى، إضافة لذلك فإن هذه الحكاية لها جذور في الأدب الشعبي الإسباني، لأن مصارعة الثيران هي واحدة من أشهر التقاليد الإسبانية في جميع أنحاء العالم وفي الوقت نفسه الأكثر إثارة للجدل، وهو تقليد حافظ عليه الإسبان حتى وقتنا المعاصر بالرغم من الانتقادات اللاذعة والتنديد بها من قبل جمعيات الرفق بالحيوان. لكن للإسبان وجهة نظر ثانية في الموضوع، حتى أن الكلمة لها موقع في قاموس اللغة الإسبانية، ووردت (Tauromaquia). وللثور في اللغة الإسبانية مترادفات جراء تلك المهنة التي ابتدأت في القرن الثامن عشر عندما تخلى النبلاء عن مصارعة الثيران على ظهور

الخيل، أما الثيران التي تقاتل في حلبة المصارعة فهي يجب أن تكون من سلالة معينة ولها خصائص مميزة وسمي (بالثور الشجاع)، على سبيل المثال أن يكون لونه أسود وهناك قياس معين لقرنيه.

أما الشخصية الرئيسة في المسرحية فهي المرأة (لاكايارادا) التي أحبت الثور رسبلاندورس، شخصية ابتدعها ألبرتي، لكن الثور عامة ورد في الكثير من الشعر الشعبي الإسباني، بعض تلك الأشعار تحذر الرجل من ذلك المخلوق الذي قام على تربيته بنفسه، وهذه ليست المرة الأولى التي يوظف بها ألبرتي رموزا من الأدب الشعبي في مؤلفاته، وتحديدا مصارعة الثيران، لقد ورد ذكر هذه الحكاية في أول ديوان شعري صدر له في المنفى(ما بين القرنفل والسيف) حيث وردت في هذا المقطع:

من حليبها أرضعته

أنت ثور لكنك ابني

لو ضربتني بقرنك

ستجد أن في أحشائي ثورا آخر.

بالرغم من نجاح ألبرتي المسرحي إلا أن هذا العمل لم يمثل على المسرح حتى عام 1992، لربما الظروف المعيشية للكاتب قد عرقلت عرضه، في حين أن العرض شهد حضور العديد من الشخصيات الثقافية والاجتماعية، ووصفه النقاد بأنه " إحدى قمم المسرح الإسباني" وساهمت في عرضه فرقة الباليه المسرحي.

المسرحية الثالثة "ليلة حرب في متحف برادو" كتبت عام 1956 في الأرجنتين ومثلت على مسرح الإيطالي "بلي دروما" عام 1973، أما في إسبانيا فقد عرضت لأول مرة عام 1978 أي بعد موت فرانكو. تصور المسرحية واقعاً معقدًا استلهمه ألبرتي من حدثين مهمين عصفا بإسبانيا ،الحدث الأول هو حرب الاستقلال عام 1808 أو ما يطلق عليها اسم انتفاضة عام 1808، أما الحدث الثاني فهو الحرب الأهلية التي اندلعت عام 1936، وتدور أحداث المسرحية في متحف البرادو في مدريد والذي يعد من أهم المتاحف العالمية للوحات الفنية الأوروبية والأكثر عددا في الزوار. بل هو موسوعة شاملة للفن التشكيلي الأوروبي، ويضم المتحف خمسة آلاف لوحة فنية لأهم الرسامين في العالم إضافة لألفي لوحة طباعية وألف عملة تاريخية وألفي قطعة فنية. فيما تعود أغلب اللوحات إلى عصر النهضة وتتراوح ما بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر، ومن المثير أن نرى أن الكاتب قد عمد إلى عمل مونتاج من لوحات فنية مشهورة في مستويات زمنية مختلفة لكل زمن خطابه الخاص به لكنها في النهاية تجتمع على رأي واحد يتعلق بالإرث الثقافي الإسباني. ويعد عمله محاولة لمقارنة ما بين فترتين تاريخيتين لا تختلفان عن

بعضهما، إذ جمع ما بين لوحات غويا التي عبرت عن صمود الشعب الإسباني ولوحات بيكاسو التي خلدت ذكرى مأساة الحرب الأهلية ولوحات أخرى، فكانت اللوحات هي شخوص المسرحية التي عبر من خلالها ألبرتي عن تلك الفاجعتين اللتين حلتا بإسبانيا.

هذا التداخل الزمني يعبر في النهاية عن رفض الدمار الذي حل بإسبانيا و بإرثها الحضاري، ولربما يلاحظ المتلقي أن حبكة المسرحية تتكون من شخصيات غير متجانسة، إلا أنها تعود لتنتظم داخل إطار الفن التشكيلي في خطاب تاريخي وطني والذي لعب فيه ألبرتي دورا أساسيا، فقد كان للرسم تأثير خاص عليه في بدايات تجربته الشعرية. الحدث الأول حرب الاستقلال التي اندلعت بين عامي 1808-1814، حينما غزا نابليون بونابرت إسبانيا بسبب خيانة رئيس الوزراء مانويل كودوي حينما وقع اتفاقية مع فرنسا سمح بموجبها أن تدخل القوات الفرنسية الأراضي الإسبانية لغزو البرتغال بسبب تأييدها لبريطانيا ضد نابليون بونابرت. ووعدت إسبانيا بتقديم الدعم اللوجستي لفرنسا في حربها ضد البرتغال مقابل أن تضم اليها بعض أجزاء من أراضي البرتغال حين انتهاء الحرب، لكن خطط نابليون ذهبت إلى أبعد من ذلك بسبب ضعف شخصية الملك كارلوس. وقد دارت خلف الكواليس شائعات عن علاقة غرامية ما بين رئيس الوزراء والملكة ماريا لويزا، فدخلت قوات أخرى لم تذهب للبرتغال بل انتشرت في أهم المدن الإسبانية الرئيسية بهدف الإطاحة بسلالة آل بوربون ولتحل محلها سلالة نابليون بونابرت وتتويج أخيه خوسيه بونابرت حاكما على إسبانيا. وهكذا نكث نابليون بوعده بينما غض مانويل كودو طرفه عما جرى، لكن الشعب الإسباني ثار ضد الغزو الفرنسي ومرت إسبانيا بفترة عصيبة تعرض فيها متحف البرادو للسرقة والدمار، ولقد قام جوزيف بونابرت بسرقة 200 لوحة فنية صغيرة طالبت بها إسبانيا فيما بعد.

أما الحدث الثاني فهو الحرب الأهلية الإسبانية التي اندلعت عام 1936 بين الجمهوريين وقوات الجنرال فرانثيسكو فرانكو بعد أن قررت الأحزاب اليسارية تشكيل جبهة الائتلاف الموحد لمواجهة توسع الفرانكوية الفاشية. وكثيرا ما أطلق عليها المؤرخون "بروفة" للحرب العالمية الثانية، حيث انقسم الشعب الإسباني إلى فئتين: الجمهوريون وهم ذوو الميول اليسارية، تحالفت معهم كل القوى النقابية والشيوعية، أما الفئة الثانية فكانت بقيادة الجنرال فرانكو الذي تحالفت معه ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية، لكن في النهاية انتصر الجنرال فرانكو وأقام ديكتاتوريته التي دامت حتى وفاته في 20 نوفمبر 1975. وحينذاك تطوع فريق من المهتمين بالإرث الفني الإسباني بإخلاء محتويات المعرض إضافة إلى آثار ومخطوطات أخرى، وتم نقلها إلى سويسرا كيلا تطالها نيران الحرب بسبب قصف الجنرال فرانكو العشوائي لمدينة مدريد. كان رافائيل ألبرتي سكرتيرا لتحالف المثقفين ضد الفاشية فعمل من ضمن فريق المتطوعين حيث نقلت هذه التحف الفنية بالقطار إلى جنيف التي أقامت هناك معرضا زاره أربعة آلاف شخص. وبعد هذه

التجربة المريرة كتب ألبرتي مسرحيته "ليلة حرب في متحف البرادو"، كان حينذاك قد غادر إسبانيا بعد سيطرة نظام فرانكو وفتكه بكل معارضيه.

.

الرجل الخاوي

El Hombre deshabitado

الشخصيات

الرجل

الفارس

الحارس الليلي

حاسة النظر

حاسة السمع

حاسة الذوق

حاسة اللمس

الفتاة

المرأة

الرغبة

الخادم الأول

الخادم الثاني

غواصان لباطن الأرض

المقدمة

الديكور: في وسط المشهد، عند مقدمته تبرز فتحة بالوعة كبيرة مغلقة، على حافة الجهة اليمنى توجد ثلاثة أقفال حديدية مثبتة في الأرض ومربوطة بحبل، القفل الأقرب إلى البالوعة مربوط بخرقة بيضاء، وفي وسط المثلث الذي ترسمه تلك الأقفال الحديدية، توجد كومة حجارة وضع فوقها فانوس صغير نوره يرتجف. أما في الجانب الأيسر من المشهد، فيوجد صفيح فولاذي له عجلات وضع فوقه قمع يحتوي على كومة فحم، وفوق الطاولة وضع شكل هرمي صُنع من الكلس. كأن كلا الكومتين دكتا بمجرفة، فتناثرت في أماكن متفرقة، وثمة خمسة أنفاق معفرة بالتراب، ومعاول ومطارق ومكعبات وأكياس وقطع من قضبان حديدية.... الخ، وفي النهاية، ينقسم المشهد إلى صورتين: الأولى مجموعة صفائح عفنة، والأخرى أخشاب مهشمة، وفي الخلفية السوداء اللون يوجد عامود ضياء كهربائي مائل يتدلى منه سلك ممزق طويل.

لما تنفتح الستارة، يعج في صمت العتمة، ضجيج بعيد، بغتة يطبق الصمت، ثم تنفتح فتحة أحد أقفال البالوعة، لتبصق أربع أو خمس حجارات واحدة تلو الأخرى، وبعدها ينبثق غواص من تحت الأرض وبيده معول وسطل مخروطي الشكل ثم يختفي. بعد ذلك يأتي آخر يقوم بالشيء نفسه ثم يذهب. ومرة أخرى تبصق فتحة البالوعة ثلاث أو أربع حجارات، وبعد أن يومض وهج خافت لنور فانوس زيتي، يتصاعد نوره متعثرا، فيتضخم قناع الغواص بشكل مبالغ فيه. إنه الرجل الخاوي، يجلس إلى جانب البئر قريبا من الضياء.

الرجل الخاوي: ظلال.. ظلال.. ظلال تنتشر في كل مكان! في الأعالي وفي الأسفل، عتمة تنضح بمياه عفنة، أنابيب مهشمة، ضربات مطرقة وصافرات ورطوبة دائمة... تمدد وبسط ذراعيه وتلمس البلاط المتناثر بيديه وقد ارتدى قفازا. آه منك! في كل مكان ألتقي بك، حجارة صلبة، عذاب قاس للرجال الذين يحيون تحت الأرض، أكرهك، ابتعدي عني، بعيدا كيلا تتشقق يدي بحافاتك الجارحة.

(يبتعد) سأذهب لأنام.

(أطفأ زيت المصباح، ثم تمدد مرة أخرى وخلد للنوم وهو يصدر صفيرا طويلا خانقا، ثم لاحت الخرقة البيضاء المعلقة بأغلال الحديد، ينهض بعد أن وصله هواء المروحة ..... يدخل الحارس الليلي.)

الحارس الليلي(يسلط على الرجل ضياء المصباح اليدوي الأبيض ويركله بقدمه)- مساء الخير، قلت لك مساء الخير.

الرجل الخاوي(بدون أن يتحرك)- آه! هو أنت. ظل آخر جاء ليضرب تعبي، اذهب عني، لا أريد أن أمسيك بالخير، لأن كل ليالي نحس، اتركني وشأني أريد أن أنام.

الحارس الليلي- ستخسر إن لم تتعرف عليّ.

الرجل الخاوي- طائر ليلي بعين واحدة تومض لتعكر حلم الرجل.

الحارس الليلي- لرجل خاو لا يريد أن يرى النور.

الرجل الخاوي- النور الوحيد الذي أعرفه لا يمكن أن يكون أكثر متعة ولا أشد ضررا للنظر. إلا إذا كان يوجد نور آخر أنت تعرفه، أما بخصوصي فأنا مجرد رجل خاو..... وضحه لي... فأنا لا أفهمه.

الحارس الليلي- سترى....(يطفئ المصباح اليدوي ويكدس الأحجار المتناثرة ليجلس عليها) رجل خاو يشبه كيسا خاوياً لابد أن يحشى بالبرونز أو الحديد ليقف على قدميه.

الرجل الخاوي- هه! هل أتيت لتخبرني أنني شرابة جلد بلا هواء.

الحارس الليلي- بل أقل من ذلك، جلد متسخ بلا حياة، لقد هلكت مدن وأمم بأكملها بسبب رجال من أمثالك: بدلات جوفاء لا ترغب في شيء، كل ما يحثها ضجر بلا هدى. انظر(يمتد ضياء أصفر اللون من

مصباحه اليدوي، فيسلطه على الركن الأيمن العلوي للرفوف المتواجدة في النهاية، وعند الركن يمتد شارع.) هل رأيت؟ لطالما مرّ على هذا الركن رجال ونساء بلا حياة، أموات يسيرون على أقدامهم، متعثري الخطى في جميع أرجاء المعمورة.

ومن دون أن تدعسها أقدامهم، يمرون معلقين بأسلاك، بدلات جوفاء وأحلام مترهلة لفرسان وعسكريين ورهبان وشباب وأطفال، يرتدون أقنعة مفزعة، طليت عيونهم، مسرح عرائس كئيب صامت ومضطرب، مجتمع بشري متضجر، مجمعات سكنية غير مأهولة، طليت من الخارج لكي تخفي إهمالها والعتمة التي تعيش بها من الداخل. كل ما يستعرضه هذا الشارع في هذا العالم هو كالقفر، صحراء تعج بالبرد. تنانير وستر وقبعات وسراويل وأقنعة غاضبة لنساء ورجال خاوين مثلك. لا أحد منهم ملم بالمعرفة أو يرغب فيها، ولا أحد يرى شيئا، يتعثر الواحد بالآخر يوميا، فيدفع الآخر بمرفقه أو يدوسه ويصبون اللعنات بصوت خافت لكن بدون أن يسبّ أحدهم الآخر. إنهم جبناء وقبيحون، قبيحون إلى حد الفزع، هؤلاء يؤكدون أنها امرأة أو شابة بل وجميلة، لكنني أقول لك إنه مجرد قالب فارغ لحقيبة من رصاص. وهذا آخر يظهر وهو يحمل غصنا يابسا لشجرة، وآخرون يؤكدون أنه كهل نبيل ورائع، لكن لا عليك: إنها مجرد لحى عفنة لمقبض مكنسة حتى النار تحتقرها. يقولون إن فتى يافعا سيمر من ركن الشارع، أقسم لك أنه كان مجرد سترة، سترة عمياء بلا مسير. لا أحد لديه ذاكرة في هذا الشارع البارد، لقد فقدها الجميع، إنه إعلان الحداد على دمى مسرنمة نسيت روحها(يطفئ مصباحه اليدوي ويختفي الشارع) هل رأيت؟ تكلم لماذا لا تجيبني؟

الرجل الخاوي– لماذا أسكنت أحلامي بأشباح مبهمة.

الحارس الليلي– أحد هؤلاء الأشباح هو أنت.

الرجل الخاوي– تقول لي وتعلمني أشياء مروعة لا يقوى تعبي على حل شفرتها.

الحارس الليلي– لماذا لم تخبرني بذلك من قبل: بأنك رجل خاو بلا ذاكرة ولا روح، كأولئك الذين استعرضوا أنفسهم على ناظريك قبل قليل.

الرجل الخاوي– بلا ذاكرة.... بلا روح.... لا أعرف ما تريد أن تقوله لي. أنا رجل جاء من باطن الأرض، ظل تحرك دوما بين الغمام والمياه العكرة، أتيت لتوقظني برؤيا وكلمات ليس لها معنى عندي: النور... الذاكرة.... الروح.... الروح...الروح...الروح ما هذا؟

الحارس الليلي– شيء ما أنت والناس تحتاجه.

الرجل الخاوي–ما هو؟

الحارس الليلي– وكيف تريده أن يكون.

الرجل الخاوي– أين هو؟

الحارس الليلي– هناك بعيدا، في مكان خفي في هذه المعمورة(يوجه ضياء أخضر اللون من مصباحه اليدوي باتجاه الركن الأعلى في الجانب الأيسر حيث الرفوف المفصوصة في الجانب الخلفي، تظهر أرواح الناس: قوالب مزخرفة من الجص الأبيض، بأحجام مختلفة، صامتة ترتجف كأنها رقاص ساعة) هذا هو مكان أرواح الناس الخاوين، إحدى تلك الأرواح تعود لك، تعيش غريبة ضجرة، وتنتظر متى تعود للجسد الذي غادرته، جسد تناساها أو لا يفكر أن يستقبلها أبدا، أما بقية الأرواح الكهلة فهي تنتظر بشغف موت الجسد الذي تنتمي إليه لكن لا تستطيع أن تسكنه، وهذه أشد حزنا وهي تتألم لأنها تعلم أن في العالم الذي تنتمي إليه هنالك سكن أو بيت أغلق أبوابه بلا رحمة، وتركها بإرادته متخشبة في عتمة الليل. انظر إليها جيدا! انهض أيها الرجل الكسول، أيها الرجل الخاوي وارحم روحك! نادها! اهتف لها! توسل لها أن تعود لجسدك! امنحها كل ما يخصها وما يعود إليها. بسرعة! وأعدك بأنني سأحررك من هذا السرداب، من هذا القبر الذي يكبح حياتك، وأجعلك أسعد خلق الله.

الرجل الخاوي–(نهض متعثرا وتقدم خطوة نحو مكان الأرواح.)– لا أدري أي منها هي روحي. أظن أنني لم أمتلكها قط، دلني عليها أنت.

الحارس الليلي– روحك هي تلك تتململ ضجرا بين الأرواح الشابة.

الرجل الخاوي– وكيف أناديها؟ كيف أطلب منها أن تأتي إليّ؟ لا بد أنها لا ترغب في أن تحطّ في كيس بائس.

الحارس الليلي– يكفي أن فؤادك يريد ذلك.

الرجل الخاوي– وهل سأكون سعيدا؟ لا تخدعني؟

الحارس الليلي– ستكون سعيدا أقسم لك.

الرجل الخاوي– (شبه نائم)– أريدك...أريدك... اهبطي ...تعالي...تعالي....تعالي.

الحارس الليلي (يطفئ مصباحه اليدوي ويختفي بمكان تواجد الأرواح، وبمقص كبير يفتح بدلة الغواص ويخرج منها يرتدي بدلة فراك كما الفارس: فيظهر شاب بقناع شاحب وشوارب سود)- مساء الخير من أنت؟

الفارس-لا أدري...

الحارس الليلي- ماذا تفعل هنا في هذه الساعة وفي ليلة باردة؟

الفارس- أتجاهل هذا.

الحارس الليلي- بماذا ترغب ؟

الفارس- لا شيء.

الحارس الليلي- ماذا ترى؟

الفارس- لا شيء.

الحارس الليلي- هل تسمع شيئا؟

الفارس- لا أسمع شيئا.

الحارس الليلي (قبض على يده بشدة ثم تركها)- هل شعرت بشيء؟

الفارس- لم أشعر بشيء.

الحارس الليلي- لا ترى ولا تسمع ولا تفهم(ثم يتوجه للجمهور)، سيداتي سادتي، طبعا إنه أمر واضح، لأن هذا الفارس سجنت روحه في جسد لم توقظه حتى اللحظة الحواس الخمس: النظر والسمع والشم والذوق واللمس. (*لما نطق بتلك الكلمات الخمس أرسل شعاعا من نور مصباحه اليدوي على كل من الأنفاق الخمسة التي توزعت على المنصة، فأطلت الحواس الخمس برأسها: أذن كبيرة تمثل السمع، وأنف يمثل الشم، وفم يمثل المذاق، وبدان تمثلان اللمس).*

سأمضي لإيقاظها، لأن بوساطتها سأفتح في روحه خمس شرفات كبيرة ليطل على العالم، سنفتح الأول، أنت حضرتك الفارس من الطبيعي أنك لم تر نجمة. لأنك كمولود حديث الولادة ولم تفتح عينيك، أما أنا في هذه اللحظة، فسأمنحك حاسة النظر من خلال نجمة، انظر إليها. (يسلط مصباحه على ستارة خلفية وفي الأعالي يومض ضياء نور).

الفارس– أه!

الحارس الليلي– إنها رائعة، هي الأكبر حجما في السماء، لقد أضاءتك أنت فقط. تأملها..أنظر إليها وعلمها الذاكرة، هنالك نجوم أخريات أصغر(تأخذ بالبريق) لقد تجمعت الآن بأشكال غريبة، منفردة هائمة شاردة في السماء. صديقي إنك الآن في حضرة أجواء سمائية، لقد بصرت عيناه الكواكب.

الفارس– آه! آه! آه!

الحارس الليلي– لكن التي تدعسها أيها الفارس هي الأرض. هذا(*ما ستعلمك إياه الأراضي القصية*) لا تنس ذلك.

الفارس –لا أعرف ما هذا.

الحارس الليلي– ستعرفه بنفسك عاجلا، لكن قبل ذلك يجب أن تمتلك بعض الأشياء، لنفتح الشرفة الثانية لروحك. (تظهر حزمة ضياء من مصباحه اليدوي ويسمع زئيرا يتصاعد رويدا).

الفارس– إيه، ما الذي أسمعه؟

الحارس الليلي– عاصفة السماء تقترب، وعاجلا ما ستمحو النجوم، وستجلب رياح الليل المطر والبرق.

(يتصاعد سهج الريح والبرق وتنطفئ النجوم. ويخيم الظلام في لحظة، اصغ لألحان الفضاء ومتع فؤادك لأن مسامعك انفتحت للموسيقى السماوية، ريحان عدوتان تتشاجران، استمع كيف تجرح إحداهما الأخرى، لربما في لحظة ستهزم إحداهما وسينتقل جسدها الذي تكهربه الأشعة للعدم ويتوقف المطر ويظهر في السماء قوس قزح ممتدا من الشمال إلى الجنوب، إنه قوس النصر.).

(تتوقف الضوضاء ويشع مع النجوم قوس قزح (إشارة للطوفان الذي ورد في كتاب العهد القديم حيث يرمز قوس قزح للسلام).

الفارس – أه! ما هذا؟

الحارس الليلي– إنه قوس قزح إشارة لسيادة السلام، يظهر دوما بعد كل معركة.

الفارس– ما أراه وأسمعه يملؤني بأشياء مبهمة.

الحارس الليلي– لأن روحك تتطلع للحياة لكنها ما زالت تجهل عطر العالم، الشرفة الثالثة تطل على حدائق أرضية، لنفتحها لك(يسلط مصباحه في الأعالي فتسقط وردة كبيرة).

الفارس– ما هذا؟ ما الذي سقط من النجوم؟

الحارس الليلي– شمها.

الفارس (يشمها عميقا)– أه!

الحارس الليلي– إنها زهرة واسمها وردة.

الفارس (يمسك بها ويشمها بشغف)– أه! آه! آه! إنها وردة...إنها وردة.

الحارس الليلي– وردة بيضاء.

الفارس– وردة بيضاء! وردة بيضاء! أريدها، أعطني إياها، (ينطق بالكلمات كما الطفل) أري..دها..ور..دة..بيضاء... ور..دة...بيض..اء.

الحارس الليلي– إنها لك تفضل (يعلقها بأذنه).

الفارس (يشمها مرة أخرى)– عطرها يجعلني أتمنى أشياء أجهلها. ما الذي أريده؟ اخبرني(يتنفس متنهدا) لماذا مريلة صدري تصعد وتهبط بهذا الشكل؟ ما الذي يملأ جسدي؟ وضح لي ذلك، أرجوك أخبرني .

الحارس الليلي– فيما بعد، لما نفتح لروحك الشرفتين اللتين ما زلت تفتقدهما حينها ستهيمن على الأرض، ستفهم ذلك كله بدون أن أشرحه لك. ما زلت أيها الفارس بدون فم: إنك تفتقر لأهم شيء لكي تسير في هذا العالم، لقد رأيت الكواكب، واستمعت إلى موسيقى الكون، واستنشقت عطر الورد، لكن ما هو مذاقك للأشياء؟ تجاهل هؤلاء الذين يعرفون الأشياء وسأعلمك الآن أن تتذوق بوساطة الفاكهة. (يسلط مصباحه اليدوي نحو الأعالي فتسقط برتقالة) هذه هي الفاكهة: اسمها برتقالة.

الفارس– آه ، أنا لا أعرفها!

الحارس الليلي (يقشرها ويعطيه شريحة) – خذ إنها ستعجبك بل لابد أن تعجبك، إنها حلوة المذاق وكثيرة العصير، مفيدة لإزالة العطش في الصحراء وإزالة التعب في أيام الحر وتنشط المشاعر في دمك إلى ما لانهاية .

الفارس– أشعر أن شفتي توترت ولساني يرتجف بدون أن أعرف السبب، أريدها كلها، كلها اعطني إياها، أشعر بحرقة في حنجرتي، شيء ما.....

الحارس الليلي– اتركها(يرميها فوق الفحم) قريبا ستعرف روحك مذاق اللمس فترتجف لما يداعبها الهواء أو تلمسها أطراف الأصابع الساخنة، فتطلب البرتقالة ليس فقط لإزالة العطش، بل ستريد فاكهة أخرى أفضل منها، بعضا منها من الصعب مناله، صعب جدا أن تحصل عليها في يوم واحد، ستصادفها في كل الشوارع وفي كل مكان في العالم.

الفارس– فاكهة أحسن منها.... صعب....صعب جدا....

الحارس الليلي– ستفهم ذلك في الحال. ستتهالك روحك داخل جسدك وتثب لتعرف كل شيء، وقبل أن يمحو الفجر هذه النجوم أقسم لك ستعرف كل شيء وتكون تلك الشرفات الخمس بحوزتك كما وعدتك في البداية وستمتلك العالم. بقي الشيء الأخير الذي سيفتح لك المداعبات الأبدية: حاسة اللمس.

(يفتح مصباحه ويوجهه نحو الأسفل ويضرب الأرض بقدميه ثلاث مرات. ينفتح باب أرضي فيخرج منه شكل ملفع باللفائف كما المومياء في أفلام الأبيض و الأسود).

الفارس–آه! ما هذا الذي يخرج من باطن الأرض؟

الحارس الليلي– سر دفن في شريط أبيض وأسود.

الفارس– سر.... وما هو هذا السر؟

الحارس الليلي– اعطني يدك، هيا، سنفتح هذه اللفائف.

(يعطيه طرف اللفائف ، فيدور به الفارس حول التمثال، وفي النهاية تظهر فتاة نائمة ترتدي بدلة سباحة شعرها الأشقر ينسدل فوق ظهرها، فيصمت الفارس مندهشا).

المسها، مد يدك إليها وداعب شعرها.

الفارس– آه! أي أعجوبة جديدة وضعتها أمام ناظري؟

الحارس الليلي– المسها بلا خوف، إنها فتاة نائمة.

(لما يلمسها، تتوقد الحواس الخمس كمصباح أحمر، فتغادر سردابها وتهرع لتطوق الفارس والفتاة.).

الحواس الخمس (سوية)– إنها فتاة نائمة، أنها فتاة نائمة.

حاسة النظر– إنها جميلة، أجمل ما في العالم، بل هي أكثر جمالا من الكواكب.

حاسة الشم– رائحتها أجمل من عطر الورد.

حاسة الذوق– مذاقها ألذ من البرتقال.

حاسة اللمس– لجلدها ملمس الزهور.

حاسة السمع– ياه! اصمتوا قلبها يخفق بشدة، غارق في أحلامه، لا توقظها.

حاسة النظر– لكنني أريد أن أرى لون عينيها.

حاسة الذوق– وأنا أود أن أخبركم عن مذاق شفتيها.

حاسة الشم– أنا على يقين أن عطرها أجمل من البرتقال.

حاسة اللمس– لنوقظها.

حاسة النظر– نريدها أن تنظر إلينا.

حاسة السمع– اصمتوا ستستيقظ لوحدها.

حاسة النظر(تخاطب حاسة اللمس)– أيقظها أنت.

حاسة اللمس– لا أجرؤ على ذلك، أخشى أن أفزعها.

حاسة الشم– أنا هنا لأجعلها تسترخي برائحة الورد.

حاسة السمع(تخاطب حاسة اللمس)– ايقظيها، ايقظيها أريد أن أسمع صوتها.

الفارس– اتركوها! أود أن أتذكر ما الذي يعنيه أن تنام بين ذراعي.

الحارس الليلي– لقد قلت لك: إنها فتاة.

الفارس– ولماذا تنام؟

الحارس الليلي– لكي توقظها أنت.

الفارس– لماذا؟

الحارس الليلي– قبلها من فمها فقط.

الفارس(يقبلها ثلاث مرات) إيه! إيه! إيه!

الفتاة(تستيقظ)- أين أنا؟ ومن أنت؟

الحارس الليلي- أنت في هذه الدنيا، وهذا الفارس هو صديقك، رفيقك في هذه الدنيا. سيدي هذه مخلوقة متكاملة جاءت من أعماق العدم، إنها زوجتك بوسعك أن تشبكها من ذراعها وتمضي معها.

الفارس- كيف ذلك؟ لم أفهم ما قلته؟

الحارس الليلي- رافقها واستمتع بكل الأشياء، لقد وعدتك أن أمنحك السعادة، وها هي بين يديك. جسد وروح نقيان مثلك، تحتاج أشياء أخرى شبيهة بك، انظر إليها، إنها هنا. أقدمها لك، وأثق بك، أنت في نهاية حياتك ستستجيب لها، ستعرف ذلك، أحرص على الاحتفاظ بها ، كشيء رقيق، أعطيتك عذراء. أهديتك جسد وروح صبية أنا خلقتها على هيئتك، تشبهك. وجعلتها زوجتك أيها الفارس، امرأتك وزوجتك، امنحها دمك وكل حياتك، وعيشا حياة هانئة وهادئة حتى أناديكما. (يخرج محفظة كبيرة) هذه المحفظة يا صديقي تحتوي على مال كاف لتعيش برفاهية. لو احتجت أكثر خاطر به في الأعمال التجارية، وأؤكد لك أنني سأساعدك دوما من بعيد. وقبل أن نفترق يجب أن ألفت نظرك لملاحظة مهمة، لك بمفردك. هؤلاء الرفاق الخمسة الملازمين لك سيتبعونك في كل أرجاء المعمورة، إن لم تسيطر عليها روحك ستسيء التصرف. فالخيانة والسرقة وحتى القتل يختبئون تحت تلك المظاهر المتوحشة.

أنصحك أن تتوخى الحذر كي لا تسيء استخدامها، لأن بها يكمن خلاصك وهلاكك، لا تنس ذلك، والآن انظرا إلى القاع: عندما تنعطفان يمينا ويسارا ستلتقيان بشوارع الدنيا، أنا أقدمها لكما، إنها هديتي لكما، على مبعدة مئتي خطوة من تلك الأراضي الزائلة التي شهدت لحظة يقظة حياتك سأحرسكما، اذهبا إليها وادخلوها في اللحظة نفسها التي غادرتما بها الظلال.

(يضيء المشهد نور أصفر اللون)

الفارس والفتاة(يركعان على الأرض برفقة حواسهما)- سيدي.

الفارس- لمن نهدي شكرنا الجزيل؟

الفتاة- من أنت اخبرنا يا سيدي؟ قل لنا ما أسمك؟

الفارس- نحن مدينون لك بحياتنا ونريد أن نعرف، ما أسمك؟

الفتاة- تقبل يديه- سيدي اخبرنا به لأنني أريد أن احتفظ به دائما في قلبي.

الفارس(الشيء نفسه)– وأنا في دمي.

الفتاة– اخبرنا باسمك يا سيدي رأفة بنا.

الفارس– لقد رأيت بنفسك يا سيدي نطلبه منك ونحن نركع على ركبتينا.

الفتاة– أرجوك اخبرنا به.

الحارس الليلي– حسنا، أنا.... لاحقا ستعرفانه، هيا امضيا.

الفارس(نهض مع الفتاة)– ما تأمر به يا سيدي.

(كلاهما يتعانقان من ذراعيهما ويتقدمان نحو الأعماق ترافقهما الحواس الخمس بمودة، يسطع شعاع نور الفجر، ينفتح باب من الأرض فيغور الحارس الليلي فيه رويدا، ولما تبدأ كتفاه بالاختفاء، يدير الفارس رأسه ويرفع ذراعه ليشير إلى الضياء الذي أنار المشهد.)

وهذا يا سيدي، من هذا؟

الحارس الليلي(وقد كاد يختفي)–

إنه النور أيها الفارس.

تسدل الستارة

فصل

الديكور: قُسم المشهد إلى ثلاثة أقسام، الجهة اليمنى وهو أكثر سعة من الجهة اليسرى والوسط، قد خصص للحديقة، إنه فصل الربيع، انتشرت أربع أشجار في الأطراف وأخرى في الوسط، وعند حافة بركة مدورة الشكل تنحدر على سطح باتجاه المشاهدين. وفي العمق جدار بيت أبيض، يتوسطه باب ونوافذه كبيرة، تنحدر إلى الأسفل من جهة اليمين وترتفع من جهة اليسار. يتصل الجزء الأوسط، هو الأصغر حجما، بقوس مع الجزء الداخلي ثم يليه سلم صغير من الآجر الأحمر اللون، وفوق ذلك، يمتد بحر واسع وسماء عالية،أمامها كومة من الكبريت وسقوف مهشمة، وباب جانبي يطل على البحر من جهة اليسار. أما الجانب الأيسر من المشهد فهو حظيرة مظلمة، تناثرت على أرضها حزم من القمح، وفيها أنفاق عالية ومنخفضة، تمتلئ بمكانس كبيرة وعيدان خيزران، ثمة عربة مقلوبة وبيوت عناكب كبيرة رسمت على

الجدار، يتصل بالجانب الوسط باب صغير. لما تفتح الستارة، يبدو الرجل وقد غلبه النعاس وبيده كتاب نصف مفتوح جلس في قارب خشبي إلى حافة شجرة من الجانب الأيسر من المقطع الثاني، بينما جلست المرأة خاملة على حافة البركة تحدق بالمياه، أما الحواس الخمس فجلست أيضا خاملة في الحديقة. وقفت حاسة النظر خلف الرجل تتكئ إلى جذع شجرة أمام الكنبة، وقفت حاسة السمع فوق سلم عال بمستوى أوراق الشجر يقع في الصف الأول إلى اليسار، على قمة الشجرة وقف عصفور من الصفيح، افترشت حاسة الشم الأرض، تحت الشجرة، تغطيها زهور كبيرة تقع أيضا في الصف الأول. وقفت حاسة الذوق في أعلى سلم آخر لكنه أقصر من سلم حاسة السمع، يقع تحت شجرة مثمرة بالفواكه إلى يمين الصف الثاني. وقفت حاسة اللمس على حافة البركة واتكأت إلى جذع الشجرة، إنها الظهيرة وقد أشتد الحر، تسمع طقطقة معدنية ومصطنعة لأزيز ثم يسود صمت بغتة، فيستيقظ الرجل كسولا، وكذلك تستيقظ حاسة النظر، يغرد طائر، يصغي إليه الرجل منصتا ويهز رجليه من السلم، يسترخي الرجل مرة أخرى ليستنشق بقوة نسيم الحديقة، وفي الوقت نفسه تقوم حاسة الشم بالشيء ذاته.

الرجل(ينظر إلى المرأة طويلا)- ماذا تفعلين هنا وقد مكثت على الوضع نفسه لفترة طويلة؟

المرأة(متظاهرة بعدم الاهتمام)- إنْ أخبرتني ما الذي تنظر إليه؟

الرجل(اقترب وجلس بجانبها، وقد سبقته حاسة البصر لتتابع كل حركاته)- أكثر سرعة من رغبتك.... لكنك لا ترين ما الذي أراه أنا هناك؟ انظري....انظري....أنا هنا. (يجلس) ما الذي ترينه؟

المرأة- أرى.... الربيع في جوف المياه... لكنك أنت لا ترى الذي أنا أراه هنا في الأعماق؟ انظر...انظر...

الرجل- آه!

حاسة النظر(تنهض واقفة خلف الرجل كأنها مسرنمة)- هناك مدن لم أرها أبدا، هذه هي إحداهن، أسوارها مسننة محطمة، حدائقها ضالة، سكانها يرتدون أسمالا بالية. يدفعونني لأن أفكر بمدينة قديمة، أكاد لا أتذكرها، لأنني سأشعر بالسعادة كلما سرت في شوارعها المحطمة، أرى عن كثب مرارة شقاء سكانها، وأبني في خيالي ماضيها الزاهي حجارة فوق الأخرى.

المرأة-مع الأسف لقد اختفت ولم نزرها.

الرجل- نعم كانت مدينة مجهولة، مدينة قديمة سنبحث عنها هذا الصيف، أريد أن أتعرف على كل زاوية في العالم.

المرأة– هل تظن أننا سنعثر عليها؟

الرجل– بالتأكيد.

المرأة– وكيف ذلك ونحن نجهل اسمها وموقعها داخل الكرة الأرضية؟

الرجل– نحن لا نعرف المستحيل. لا تتسرعي فأرواحنا الصافية ستعيننا لأن نجد المجهول بسهولة. هل أنت سعيدة؟

المرأة– نعم.

الرجل– وهل أنت سعيدة جدا لأنك منعزلة عن الناس والقرية؟

المرأة– إيه! سعيدة جدا.

الرجل– هل شعرت بالحزن وأنت برفقتي؟

المرأة– وما هو هذا؟ الحزن.... هذه الكلمة أسمعها لأول مرة.

الرجل– وأنا أول مرة أتفوه بها... لا أدري ما تعني.

المرأة– كلمة سيئة؟

الرجل– أمر نجهله كلانا.

(يفكران بها سوية)

المرأة– هل تتذكر رحلتنا؟ انظر مرة أخرى إلى قاع الماء، ما الذي تراه مجددا فوق الوحل.

الرجل– صحراء بيضاء.

حاسة النظر– الثلج هو وطن الثلج (*إشارة لموسكو التي وردت في جنة البروليتاريا*)

المرأة– تلك الزلاجة التي تسحبها ستة أيائل، انظر أحدها هو أنت.

الرجل(يلمس خد المرأة)– إيه! لقد تجمدت خدودنا.

حاسة اللمس– أنا أرتجف بردا... إنها تثلج....

الرجل– لقد داهمنا الليل ونحن في غابة أشجار التنوب، لنوقد النار كي نرعب الذئاب.

حاسة الشم– رائحة شجر صنوبر محروق، أو ثلج ذاب في شال من صوف....

المرأة– لقد أبعدت الريح والذئاب النعاس عنا، هل تتذكر ذلك؟

الرجل– حرستك ببندقيتي حتى بزوغ الفجر بجانب النار. لقد نمت بهدوء.

(يسود صمت)

المرأة– إيه!

الرجل– ما الأمر؟

المرأة– الآن نذهب بالحافلة، ما زالت تثلج؟ لقد تحولت الأشجار إلى قمم من أنوار كهربائية.

الرجل– هل تعرفينها؟ هل تعرفتِ على هذه المدينة؟ إنها أكبر مدن العالم. (*يقصد مدينة نيويورك التي وردت في قصيدة شاعر من نيويورك*)

المرأة– هه، صحيح!. لقد تعرفت عليها، تحتوي على الكثير من الحانات، الكثير منها، وكل واحدة أكبر مساحة من الأخرى.

حاسة الذوق – أشعر بالعطش والحر.... مذاق فمي كرصاص.

حاسة السمع– أذني تصفر لي وتنزف... لا أسمع ما تحدثني به.

حاسة النظر– إنها مدينة الحديد والأقواس المقلوبة. تود أبراجها لو تنفجر نصرا وتهزم الملائكة، أرى ناسا تمر وبيدها حزام ذهبي وبالأخرى مسدس الجريمة. ودم المدينة يتسارع نحو الموت بين دخان المصانع والقطارات بدون أن تلتفت برأسها.

الرجل– لقد صعدنا وهبطنا دروبا واسعة... تعبت... لندخل الحانة.

حاسة اللمس– تريحني الأصابع، حينما تبردني بكأس زجاجية وملعقة من الفضة.

حاسة الذوق– أمست الحمى في لساني صقيعا!

المرأة– يا لحلاوة ولذة مذاق تلك المثلجات.

الرجل– لنذهب بعدها مباشرة إلى الفندق، وهناك....

المرأة(تضع يدها على كتفه)– وهناك...(يتأملان طويلا وكأنهما يتذكران)

حاسة النظر– الضياء.... الضياء انطفأ.

حاسة اللمس– بشرة، كشراشف منعشة...

حاسة الذوق مازال مذاقها كالثلج... كالفاكهة...

حاسة الشم– عطر زهرة السنط والناردين والبحر...

حاسة السمع– صمت..يتناهى من بعيد أزيز المصاعد، صمت مطبق، كالحلم.

(يسود صمت)

المرأة(تنظر مرة أخرى للمياه)– إيه!

الرجل(ينظر إليها أيضا)– أراك الآن بين الطحالب، تطوقينني بذراعك.

المرأة– لقد قبلتني في كل أماكن العالم، لكنك لم تقبلني في أعماق مياه تلك البركة.

الرجل– هل ترغبين بذلك؟ ألا تخشين أن تزعجنا *سمكة ملونة* *(رمز مسيحي إسباني يرمز إلى حالة اللاوعي عند الإنسان وبالتالي هو الذي يتسبب في ارتكابه الذنوب)*

المرأة–لا . قبلني.

(يقبلها الرجل، بينما الحواس الخمس تتنهد عميقا في آن ثم ينهض)

أنا مسرورة، أريد أن أمرح، هيا بنا!(تهرول بضع خطوات) الحق بي.

الحواس الخمس –هيا..هيا...هيا..هيا..هيا.. هيا..هيا..!

(لما ينهض الرجل تنهض معه حاسة الشم)

الرجل(يلحق بالمرأة)– سأمسك بك.

المرأة– لقد تركتك لتمسك بي.

الرجل– نعم.. لكي...أنا....(يقبلها)

المرأة– أكذوبة!

الرجل– بل حقيقة!

المرأة– لا.

الرجل– بلى.

المرأة– هل أنت غبي؟

الرجل– وهل أنت غبية أيضا؟

المرأة– لا.

الرجل– بلى.

المرأة(تخرج له لسانها) غبي!

الرجل(يقوم بالشيء ذاته) – غبية.

المرأة(تركض وتختفي عن النظر لما تدخل باب البيت)– حسنا امسك بي مرة أخرى.

الرجل(يلحق بالمرأة)– سترين(يدخل البيت أيضا)

الحواس الخمس : هيا..هيا...هيا..هيا..هيا.. هيا..هيا..!

حاسة اللمس– روح الرجل سعيدة.

حاسة النظر– روحه أسعد ما في الأرض.

حاسة الشم– لقد ترك الرجل حواسه الخمس في الحديقة.

حاسة السمع– لنحتفل نحن بسعادة الرجل.

حاسة الذوق– لنلهُ!

(حاستا الذوق والسمع تهبطان من السلم وتقفان تحت الشجرة، تلهو الحواس الخمس)

حاسة النظر(تتقدم خطوة) – أنا النظر وأرى كل شيء.(ثم تستدير)

حاسة الذوق(الشيء نفسه)– أنا أتذوق، وأتذوق كل شيء.(ثم تستدير)

حاسة الشم(الشيء نفسه)– وأنا أسمع، وأسمع كل شيء.(ثم تستدير)

حاسة السمع(الشيء نفسه)– أنا أسمع، وأسمع كل شيء.(ثم تستدير)

حاسة اللمس– أنتم تحيطون بي، وأنا ألمس كل الأشياء، أنا حاسة اللمس، ألمس الماء فتخرج سمكة.

حاسة النظر– نعم إنها مفضضة...

حاسة الذوق– طعمها مالح...

حاسة النظر– إنها ملونة....

حاسة الذوق – مذاقها كالعسل. ***تخرج حاسة اللمس سمكة حمراء*** **)**

حاسة اللمس (تخاطب حاسة السمع)– خذِ، أعطيك سمكة حية(تعطيها إياها)

حاسة السمع– لماذا؟

حاسة اللمس– لكي تصغي إليها(تعود لمكانها).

حاسة السمع– لتسمعي ما بأذنيها وتري في بقايا حراشفها المركب والشراع والنسيم والماء.

(تخاطب حاسة الشم) – خذي، أعطيك سمكة حية(تعطيها إياها).

حاسة الشم– لماذا؟

حاسة السمع– لكي تشمي رائحتها (تعود لمكانها).

حاسة الذوق– لتفح في جناحيها وتفوح في ذنب نجمة بحرية وفي الطحالب وفي الورود.

(تخاطب حاسة النظر) – خذي، أعطيك سمكة حية(تعطيها إياها).

حاسة النظر– لماذا؟

حاسة الشم– لكي تنظري إلى ما في داخلها(تعود لمكانها).

حاسة النظر– أرى في خياشيمها وفي عينيها أشرعة تغادر ومراكب محطمة. (تخاطب حاسة الذوق)

خذي أعطيك سمكة حية (تعطيها إياها).

حاسة الذوق– لماذا؟

حاسة النظر– لكي تستمعي بها (تعود لمكانها).

حاسة الذوق– أنا أستمتع بأشواك أسنانها، لا عسل ولا ملح، بل دم وموت.

(تضغط عليها لتخنقها، ثم تخاطب حاسة اللمس) لقد قتلت السمكة(تعطيها إياها) وأعطيك إياها ميتة.

حاسة اللمس– لماذا؟

حاسة الذوق– لكي ترميها بالماء.

(تعود لمكانها، ثم ترمي حاسة اللمس بالسمكة في الماء)

حاسة اللمس– ألمس كل شيء، أنا حاسة اللمس.

حاسة النظر– أنا أرى كل شيء، أنا حاسة النظر.

حاسة السمع– أنا أسمع كل شيء، أنا حاسة السمع.

حاسة الذوق– أنا أتذوق كل شيء، أنا حاسة الذوق.

حاسة الشم– أنا أشم كل شيء، أنا حاسة الشم.

حاسة النظر– أرى.

حاسة السمع– أسمع.

حاسة الشم– أشم.

حاسة الذوق– أتذوق.

حاسة اللمس– أتلمس، أنا من ألمس ولا تستطيع أي منكن أن تلحق بي!

(يهرعون كلهم إلى بركة الماء)

يتعالى صوت امرأة(من الساحل)– أتقذوني!

(خبطات على الباب وضجيج، في وسط المشهد، تتوقف الحواس الخمس عن لهوها وتصغي مذعورة)

أصوات مختلفة– هنا، هنا! هذا هو البيت! النجدة!

صوت امرأة– رجال سيئون! جبناء!

أصوات أخرى– افتحوا الباب! افتحوا الباب بسرعة! افتحوا! افتحوا!

صوت المرأة– أتقذوني!

(بينما تتواصل الضوضاء يخرج من البيت الرجل والخادم الأول والثاني وتعود الحواس الخمس إلى الأشجار)

الرجل– ما الذي يحدث؟ ما الأمر؟ اتبعوني.

الخادم الأول– هل جُرح أحد.

الخادم الثاني– بل قُتل.

الرجل(يحاول أن يفتح الباب)– إنه لأمر فظيع! هل كان القفل محكما.

صوت امرأة– أرجوكم!

(تتواصل الخبطات ويتعالى الضجيج)

الخادم الأول– اسمح لي يا سيدي أن أفتح الباب.

الرجل– بسرعة! استعجل لأن أمرا مروعا يحدث.

(يبقى الباب مفتوحا، ويظهر ضمن إطاره امرأة حافية القدمين وشعرها أشعث وتكاد تكون عارية، حاسة اللمس: إنها جميلة جدا)

الرجل والخادمان: رائعة!

الرغبة (همست): ماء.... أشعر بالعطش....

الرجل– لكن... هل أنت بمفردك؟ من أفتعل كل هذه الضوضاء؟

الرغبة (تستند إلى مدخل الباب)– لا أحد... لا أدري... أنا منهكة.

الخادم الثاني(يطل على الساحل) – لا أحد؟

الرجل– والأشخاص الذين يتبعونك، أولئك الذين يصرخون ويرمونك بالحجر.

الرغبة– ماء... أريد ماء...

الرجل– تعالي.

(تتقدم الرغبة خطوة، فينهض الرجل والخادمان، فتتراجع حاسة اللمس، وتتكئ عليهم هم الثلاثة وتسير ببطء.)

إلى الحديقة.... إلى البركة...إلى البركة....

الرغبة – الحر شديد.... خانق.... ماء... حر شديد....

الخادم الأول– انتبهي.

الخادم الثاني– لئلا تتعثري.

الرجل– هنا.

(يجلسون جميعا، تجلس حاسة اللمس على حافة البركة، يسندها الرجل وقد طوق خصرها بإحدى ذراعيه. بينما باليد الأخرى يبلل منديله بالماء ويمسح جبهتها، يقف الخادمان. بغتة تنزع حاسة اللمس منديل الرجل وتمزقه بأسنانها ثم ترمي به إلى الماء وبعدها تنظر للرجل بغضب ثم تلتفت إلى الخادمين ثم تعاود النظر للرجل.)

الرغبة– قل لهذين أن يذهبا.

الرجل– اذهبا.

الخادمان– حاضر سيدي...(يحنيان رأسيهما ويختفيان خلف باب الدار)

الرجل – لقد ذهبا.

الرغبة (بعد أن تحدق إليه طويلا)– لم أكن أشعر بالعطش، كانت أكذوبة.

الرجل(مندهشا من قولها)– من أنت؟ لم أرك سابقا.

الرغبة (بجفاء)– كانت أكذوبة. أردت أن أدخل بيتك وأراك وأتحدث معك وأتعرف عليك... وها أنا هنا

أمامك ولا أفكر بمغادرة المكان.

الرجل(بعد أن ينظر إليها بجمود ينهض بغتة)- لا أعرفك ولا يهمني ذلك، اخرجي! بسرعة! اخرجي من هذه الحديقة.

الرغبة (غاضبة)- لن أخرج، قصدت دارك لأقضي الليلة هنا ولربما طوال حياتي. حتى لو قتلتني وسحلتني حتى الساحل بعد موتي. وبعد كل ذلك لن تتخلص مني، من هذا الجسد الصلب الذي لم تتعرف عليه بعد: فالبحر والريح سترجعني إلى جدران غرفتك بقرب حافة سريرك، وإن طردتني ستبقى بلا أحلام، أقسم لك بذلك، حتى وأنا جثة هامدة سأبقى حاضرة في كل لحظات حياتك.

الرجل(يجلس حائرا) – ما تقولين؟ (ثم برقة) حدثيني بصراحة.... لأنني لم أفهم.

الرغبة (برقة متوسلة)- أنا أعلم أنك موجود فجئت لأراك، أنا أعرفك جيدا، دعني أقضي معك فقط بعض الساعات.

الرجل (بارتياب)- لا، لا أستطيع.... هل تريدين.... سأوضح لك.... لا.... فأنا لا أعرف من أنت.

الرغبة- حتى لو نمت في الحظيرة بين أكداس القمح والعناكب، فقط دعني أنام(كادت تبكي).

لقد أتيت حافية القدمين، لقد سرت طويلا وأدمت الأحجار والرمال قدمي، انظر إليها، إنها مدماة.

الرجل(برقة شديدة)- صحيح... إنها تدمي... وأتيت منهكة... لكن ليس بسبب كذبتك ...لكنني لا أعرفك.

الرغبة – لأراك....لأراك... أنت لوحدك...

حاسة النظر(للرجل بصوت منخفض) – لا تشك بها، دعها تنام الليلة في بيتك، انظر إليها، إنها أكثر تألقا وجمالا من امرأتك.

الرغبة- تعرفت عليك من خلال الكلام، وكثيرا...ما سألت نفسي ما شكلك... وكنت.... كما أنت: شابا ذكيا جميلا رائعا.

حاسة السمع(بصوت منخفض)- قل لي، هل سمعت صوتا كهذا؟ من في العالم تولع بك وداعبك بهذا الصوت الرخيم؟ لا تدع مسامع أخرى تسمعها.

الرغبة- وبأنك ثري ومرفه، وتعيش بحديقة جميلة تطل على البحر، وروحك....

حاسة الشم (بصوت منخفض)- تفوح بعبق الشمس والأمواج والسماء والريح الحرة. إن تركتها ترحل ستبقى كأنك بلا هواء.

حاسة الذوق(تقترب منه وبصوت منخفض)- هكذا يا صديقي، هكذا جرب شفاها أخرى، ومن الأفضل هاتين الشفتين. فهما جديدتان وتجهلهما تماما، لا تتركها تذهب. (تعود لشجرتها)

الرغبة (يتركها الرجل أن تقبله)- لم يخدعوني، فروحك....روحك... ما أطيب مذاق روحك! لقد شربتها كلها. أشعر كأن الكون كله في داخلي. أحبك... أحبها...اعطيني إياها...بلى...بلى...(تبقى كأنها نائمة)

حاسة اللمس(تقترب وبصوت منخفض)- هي لك، داعبها الآن، انظر ما أجمل جسدها، احجزه لك، المسه، إنه بض ومتماسك كما أحجار الساحل، المسه بلا خوف فأنت الرجل.

(يتلمسه الرجل من الجبهة حتى الصدر، فتظهر امرأته البريئة على باب الدار)

المرأة- ما هذا؟ ما الذي يحدث؟

الرجل(ينهض وثبا) لماذا تأخرت كثيرا بالمجيء؟

المرأة(تقترب بشكل حميمي)- ما هذا؟

الرجل- ألم يخبرك الخادمان أن تأتي إلى الحديقة لأنني بحاجة عاجلة إليك؟

المرأة- من هذه الشابة؟ ما الذي حدث لها؟ متى جاءت؟

الرجل- لا أعرف من هذه الشابة. لقد أتى بها رجال من الساحل، وجدوها فاقدة الوعي فوق الحجارة قريبا من البحر. لا هم ولا أنا نعرف شيئا عنها. فهي حتى الآن لم تفتح عينيها، وأنت؟ لماذا تأخرت كثيرا؟ لقد طلبت من الخادمين أن يخبروك بالمجيء في الحال.

المرأة- لقد بحثوا عني لكنهم لم يجدوني، أمر غريب، لقد صعدت إلى البرج لكي أطعم الحمام، وبعد ذلك لم تكن في غرفتك فكرت أن أجدك في الحديقة، وأتيت لأبحث عنك فقد مرت نصف ساعة ونحن بعيدان عن بعضنا.

الرجل- ما نفعل لهذه الفتاة المسكينة؟ أمرها يحزنني، لانعرف من هي ولماذا فقدت وعيها على الساحل.

المرأة– ماذا قال الذين جلبوها؟

الرجل– هذا فقط. والباقي أجهله.

المرأة(تركع على ركبتيها أمام الرغبة وتلمسها)– إيه! إنها رائعة، جسدها بارد وتعلوه الخدوش. يا للمسكينة! قدماها مجروحتان، لكنها ستعيش.

الرجل(يتظاهر بالقلق)– تعيش، حقا!

المرأة– نبضها يخفق بطيئا.

الرجل– لربما حاولت هذه الفتاة أن ترمي بنفسها في البحر.

المرأة– تنتحر؟

الرجل– نعم تضع حداً لحياتها، ظناً منها بأنها ستبلغ النجوم سريعا.

المرأة– لا، لا أظن ذلك، أظن...لكن لا يمكن ذلك... فهي ستتكلم وستخبرنا بكل شيء، لأنها على قيد الحياة... إنها كقطعة مرمر. تحتاج إلى حرارة وهواء على جبهتها... انتظر، امسحه بيديك وبمنديلك... سأعود في الحال.

الرجل– لا تتأخري.

(تدخل المرأة إلى البيت)

الرغبة(تصحو فجأة) – من هذه المرأة التي سمحت لها أن تلمسني و.....؟ من هي؟ قل لي بسرعة.

الرجل– هذه المرأة التي سمحت لها أن تداعبك وتثني على جمالك هي زوجتي.

الرغبة– وغد! هل تظن أنني أجهل ذلك؟ فقبل أن أولد أشعر بكراهية وقرف عميق صوبها. فمدحها لي ومداعبتها جعلت من خدوش جسدي أعمق وفتحت جراحي أكثر. لقد وخزت روحي حتى أعماقها كأنها هشمتني كقطع زجاج.

الرجل– ما الذي فعلته لك زوجتي لكي تهينيها وتحتقريها بهذا الشكل؟ إنها بريئة.

الرغبة– لقد أفرغت براءتها روحي من ثمالتها، سأقتلها.

الرجل– ما الذي تقولينه؟ من أنت؟ من أين تأتين بهذه الكلمات؟ من أي كهف يغص بالفجور جئت إلي؟ ماذا تريدين أرجوك؟

الرغبة– أريد....

(تدخل المرأة وهي تحمل على ذراعها معطفا جلديا)

المرأة – ما هذا؟ إنه لأمر مفرح!

الرجل– لقد استفاقت الآن من إغماءتها قبل لحظة، وهي تشعر بالعطش، سقيتها بيدي من ماء البحيرة وبللت جبينها بمنديلي لأطرد الحمى عنها. نهضت لوحدها. نظرت إلي مندهشة وقالت أول كلمة في اللحظة نفسها التي ظهرت فيها.

المرأة– ماذا قالت؟

الرجل– أريد... ليس أكثر. وصمتت لما رأتك.

المرأة(جلست بجانب الرغبة)– ماذا تريدين؟ قولي لي، إن كنت تستطيعين الكلام، تكلمي بهدوء.

الرغبة(بعذوبة)– أريد أن أذهب...أذهب.

الرجل(مندهشا) – تذهبين؟

المرأة– لقد جلبت لك هذا المعطف لتتدثري به، وهذه اللفائف لكي تضمدي جروحك.(تخرج لفافة بيضاء من جيب المعطف، تسود العتمة الحديقة رويدا).

الرغبة– شكرا، شكرا جزيلا، يجب أن أذهب.

الرجل– هكذا إذن؟ حافية القدمين مدماة وعارية تقريبا، هكذا؟ لا أنا ولا زوجتي نقبل بذلك.

الرغبة– ماذا تريدان مني؟ يجب أن أذهب. ينتظرونني هناك بعيدا....

المرأة– لا يمكن ذلك، بدأت الشمس بالغروب، سيبدأ بعد قليل مد البحر على الساحل قريبا من المنارة ولن يبقي طريقا سالكا ليلا، سيعتريك الخوف...

الرجل– ابقي وامضي الليلة معنا. إلى أين تذهبين؟

المرأة– من سيحميك هناك بعيدا؟ من أين أتيت؟ ما الذي جرى لك؟

الرغبة– منذ زمن بعيد وهم ينتظرونني دائما، أصحابي، كل أصحابي. أتيت لأطوف العالم، هربت من بيتي لما بلغت الخامسة عشرة، والآن سأعود مرة أخرى، بعد مرور خمس سنوات. سرت هائمة في الأرض، وعدت متعبة وفقيرة، وبالقرب من هذا البيت لما حاولت أن أقفز فوق حجارة الساحل، التوت قدمي، وتغوشت عيني و.... أنتما أخبرتماني بما حدث فيما بعد.

المرأة– حملك بعض الرجال إلى الساحل وسلموك إلى زوجي، وهو بمنديله الخاص، رطب جبهتك المحمومة. استفقت وهو بجانبك لما دخلت أنا أحمل الثياب لأدثر جسدك.

الرغبة– شكرا لكما يا صديقاي. (تنهض وتقبل المرأة) الآن اتركاني أرحل.

المرأة– تذهبين؟ أنا سأذهب لأهيء لك السرير...

الرجل– هذا غير ممكن، لقد خيم الليل ومد البحر أغلق الطريق، وسيتراجع حين انبلاج الفجر، امكثي معنا.

المرأة– صباحا سنرافقك حتى تجتازي المنارة.

الرغبة– هذا مستحيل(تخطو خطوة لكنها تقع.)

الرجل(يسندها)– من المستحيل أن نتركك تذهبين وأنت منهكة بهذه الحالة.

المرأة– بل ستمكثين؟

الرغبة– نعم حتى الفجر.

المرأة– هذا أمر مفرح!،(تلتفت للرجل) ستبقى!

الرجل– يجب أن يكون هكذا الحال، لأن لا حل آخر(يسود صمت) والآن دثريها بمعطفك، وضمدي جراحها ورافقيها حتى غرفتك، فهي متعبة ويغلبها النعاس.

الرغبة– جراحي قديمة ولا تؤلمني،..... أستطيع أن أسير بدون ألم.

المرأة– هل تقبلين أن أضع معطفي على كتفك، فجسدك بارد. (تضعه فوق كتفيها)

الرغبة– نعم أشعر بالبرد.

الرجل– كثيرا، بالرغم من أن الليلة دافئة وأوراق الأشجار ساكنة. سأذهب لأنام بعد قليل. (يذهبان...)

الرغبة– أشعر بالنعاس.

المرأة– ستنامين في سريري.

الرغبة– أنت طيبة، وأنا سأكون صديقتك، ايقظيني عند طلوع الشمس.

المرأة– ما أسمك؟ لم نتبادل الأسماء حتى الآن، اخبريني أنت أولا. (يصغي الرجل بإمعان)

الرغبة– (بصوت منخفض وهي على عتبة الباب) اسمي؟ اسمي؟ تريدين أن تعرفي اسمي؟ ستعرفين، أنا اسمي....

(يدخلان البيت)

الرجل(يجلس على حافة البركة)– لا أستطيع أن أتحمل أكثر من هذا، لم أعد أعرف من أنا.

(تحيط به الحواس الخمس، وقد أشعلت كل منها مصباحها.)

حاسة اللمس– انهض أيها الرجل السعيد، انهض.

حاسة السمع– هل سمعت؟ ستقضي الليلة في فراشك.

حاسة البصر– لا يوجد رجل في العالم مثلك.

حاسة الذوق– إنها معجبة بك.

حاسة الشم– سأشم اليوم عطراً سماوياً ستستنشقه أنت اليوم.

الرجل– اتركنني أرجوك! فأنا لا أعرفكن ولا أعرف من أنتن، بل ترعبني أصواتكن، فأقنعتكن مروعة مخيفة، أريد أن أخلد للنوم.

حاسة النظر– تنام؟ أن نمت الآن ما الذي ستراه؟؟ نجوم لم تبصرها من قبل وسماء مجهولة؟

الرجل– لا تكلميني عن النظر. انزعي عني نظري واتركيني بلا ضياء، قبل أن تعكر ظلال أخرى روحي. أرمي بحدقتي للبحر ليحرقها ملح البحر في الأعماق، أريد أن أشعر بأنني فاقد البصر.

حاسة اللمس– ما الذي تقوله أيها الجبان، تنام! انهض وانظر لي من الأمام، ألا تعرف يدي وجلدي بلمساته التي لا تنتهي؟ من أنا؟ تنكرت لي الآن ونحن نقف وجها لوجه، نم الآن لأنني سأحملك إلى أبعد من مكامن المتعة والمداعبات.

الرجل– بل أعرفك لكن لا أريد أن أعرفك، أنت من خدرت جسدي وجعلته بلا أحاسيس ككلب أصيب بالشلل، انتزعت ساعدي وشفتي ولساني بل كل كياني، وبقيت يدي بلا ذكرى.(تربت حاسة اللمس على كتفه.) لا تلمسيني، اتركيني! فأنا ميت.

حاسة اللمس– كذاب! أنت خائف، وميت من الخوف، يا للخزي والعار! فأنا أتقزز من نفسي لأنني حاستك، سأهملك، أنا ذاهبة (تتصنع الذهاب)

الرجل(يقف بغتة) – لا، لا! لا تتركيني الآن! كيف سيكون وضعي بدونك، كنهر بلا ماء، وشريان بلا دم، وجسد بلا جسد، خذيني حيثما تشائين، اجذبيني إلى أبعد من الحمى والجريمة.

حاسة السمع– الجريمة! هل أنت مجنون.

حاسة اللمس– مجنون، مجنون! لا يدري ما الذي يتفوه به.

الرجل– أعرف جيدا ماذا أقول، أنا مجنون! وأعلم أنكن تتآمرن ضدي لكي أضيع براءة الروح، وأفقدها، ما الذي فعلته لكُنّ زوجتي؟ لماذا تدفعنني لخيانتها مع امرأة أخرى لا أفهمها ولا أعرفها ولا تهمني بشيء؟ حدثنني بصراحة.

حاسة السمع– ضياعك! خيانتك! رجل مسكين جاهل! كسرت قلبي حين سمعت كلماتك. الآن أنت ميت حقا. لا تنتظر مني أن أدخل في مسمعيك ذلك الصوت المجهول مرة أخرى، ذلك الرنين الذي يرفع روحك بعذوبته إلى أقصى السماء السابعة متعة ولحنا موسيقيا. سأعزل نفسي عنك، ولن تسمع شيئا أبدا.

حاسة النظر– سأبكي من أجلك أيها الرجل الميت.

الرجل– تبكين! وتأنين! سدي أذني بمسمارين ساخنين ثم اتركيني لأن أمرا فظيعا يترصد بي، وأنتن لا تردن أن توضحنه لي، فأنا لم أعد أعلم شيئا بعد أن غمرني ضبابي.

حاسة النظر– أسعد الرجال: هو أنت. لكنك لا تريد أن تفهم ذلك، تكدر صفاءك فتكتئب لوخزة ضميرك ولشك بلا جدوى.

حاسة الذوق– أفرح! سأجعلك تستمتع بجنة جديدة، لأن التي تملكها الآن تعرفها، وستتبرم منها، وتسأم منها، أنت ضجرُ منها ، بُح به، سأبوح به لك، لي، لا تكن جبانا، يجب أن تجرب شيئا آخر موجودا وأكثر جمالا.

حاسة الشم– شيء آخر، يفوح بعطر مختلف، وذات يوم لما تتذكرها ستجدد تلك الساعات واللحظات السعيدة. يا لك من رجل محظوظ!

حاسة النظر– لا أحد مثله!

حاسة السمع– شجاع وذو عزيمة!

حاسة الذوق– رجل حقيقي!

حاسة اللمس(تربت على كتفه)– أحسنت!

الرجل(منتفضا وقد اتكأ على الشجرة التي تتوسط المكان)– افعلن بي ما ترغبن، سأهملكن، هكذا يجب أن أفعل، لم أعد أستطيع أن أتحمل.

الحواس الخمس (بهدوء)– هيه، هيه، هيه، هيه! (يطفئن المصابيح وتخيم العتمة)

المرأة(تطل من الباب بينما تضاء النافذة العليا والرغبة تتنصت)–أين أنت؟ لا أراك.

الرجل(بصوت واهن)– هنا.

المرأة– لماذا تأخرت كثيرا.

الرجل– أشعر بالحر.

المرأة–هل ستأتي؟ سأنام.

الرجل(غض سمعه)– نعم ، أنا قادم.

(يدخل الدار برفقة المرأة ويغلق الباب في الوقت نفسه، بينما تطفئ الرغبة نور غرفته، صمت وجيز، تتخلله ضوضاء وصافرات ليلية.)

الصوت الأول–أية بشائر معتمة ستكشف هذه الليلة عن حلم في الماء؟ أي يدين مدماتين تقضان مضجعك وتكدرك؟ اجيبيني يا أشجار البركة أنا صوت البركة.

الصوت الثاني– أوراقنا لم تنم أيضا، تملكها الجزع، نجهل أي نار غاضبة، وأي لهيب خفي يحرقنا. فيرقات وحشرات خرساء تحيا وتعمل داخلها. ماذا تقولون؟ أجيبينا يا أشجار. (يسود صمت) لا يقولون شيئا. بل ماتوا رعبا.

الصوت الثالث(من بعيد)– آه! آه! (أنين حورية البحر يرن من بعيد)

الصوت الرابع– البحر يستغيث من بعيد. ما الذي سيحدث هذه الليلة؟ ما الأمر نحن مجرد قصب فقير وحزم قمح، أشياء حزينة مكدسة في تلك الحظيرة بلا زمن، بل لا نقوى حتى أن نطبق أجفاننا؟

الصوت الخامس– أمضي، أواصل المسير سريعا. ألم يستوقفني في هذا المكان؟ أمضي، فأنا الهواء.

الصوت السادس– صمت مميت، أنا الليل.

(تخرج الرغبة خلسة عارية تقريبا)

الرغبة(بصمت)– هل أنتن نائمات؟

الحواس الخمس (تشعل المصابيح)– أبدا.

الرغبة–لقد قهرنا الرجل؟

الحواس الخمس – نظن أننا فعلنا ذلك.

الرغبة– أصمتن. رافقنني. اتبعنني.

(يتبعونها حتى الحظيرة، بدون ضوضاء وبصف منتظم.)

اسمعنني، لقد هُزم الرجل، أعرف ذلك، فهو لم ينم. ولن يستطيع أن ينام مطلقا، خلال بضع دقائق سترون، سيأتي إلى غرفتي كالمسرنم، فالرغبة ستجعله يبحث عني كالأعمى في كل أركان الدار، حتى يهوى، كمجنون بلا بصيرة، في الحديقة. وهناك سننتظره بجانب البركة. كونن دوما معي، فأنا بحاجة إليكن أكثر من أي وقت مضى، سيأتي إلي يائسا منهكا بلا سيطرة ويستسلم لي، وكأن الكون النقي الذي يتبع روحه بلا مغفرة سينتهي عندي. لكنه يجهل أن الفوز بي يقتضي منه الركوع على شفا الهاوية الأخيرة التي تنقصه. هل تعرفن ما هي؟ ألا تعرفنها؟

الحواس الخمس (بهدوء)– لا!

الرغبة–إنها عميقة جدا، سأسر بها لكن اقتربن مني (تتكلم شيئا غير مسموع)

الحواس الخمس – ها، هه!

الرغبة– يجب أن تساعدنني. أنتن...(تقول مرة أخرى شيئاً غير مسموع) هل ستقومن به؟

الحواس الخمس – نعم، نعم.

الرغبة– أنتن تمثلن تألق الوعي الجديد، والذي به سيخوض الرجل معركته الأخيرة، سيتوسل ويبكي وسيتمنى الموت، لكن.... كل ذلك لا جدوى منه. لقد ضاع، وليحصل عليّ يجب أن يخسر شيئا في البداية.

(يسود صمت، يضيء الرجل نور الغرفة قبل أن يجد الرغبة، لا يرى شيئا فيطفئه)

لنذهب إلى الحديقة، لقد اقترب الرجل، اتبعنني بصمت.

(تطفئ الحواس الخمس المصابيح وتخرج خلف الرغبة، يتوزعن في الحديقة كل واحدة بجانب شجرة، تقترب الرغبة بصحبة حاسة اللمس من البركة، يخرج الرجل.)

الرجل– أين أنت؟ هل تسمعيني؟ لا أراك، لا أرى شيئا(يسود صمت) اجيبيني، دليني عليك. سأسير بلا هدى(يسود صمت وبعدها بصوت عال) هل رحلت؟ هل ذهبت؟ هل هذا ممكن؟ (يصرخ) آه؟...

الرغبة(تغطي فمه بينما الحواس الخمس تجلسن لتضئن الفوانيس)– اصمت فالجميع نائمون وأنا أنتظرك.

الرجل(يلمسها لما تقترب منه)– إيه! أنت عارية.

الرغبة(تبعد يديه)– نعم لكن لا تلمسني، لم يحن الوقت.

الرجل–لم يحن الوقت؟

الرغبة– انتظر.

الرجل أنتظر...أنتظر... أكثر بعد؟ أنت عذابي...

الرغبة– أنا سعادتك، تعال بجانبي.

الرجل(يقترب منها ويحاول أن يقبلها)– آه! أنت حارقة.

الرغبة(تبعد يديه عنها)– نعم لكن لا تقبلني، لم يحن الوقت، مازال الوقت مبكرا، ابعد عني.

الرجل(كالمسرنم)– لم يحن الوقت.... مازال الوقت مبكرا... ابعد عني.... ماذا تريدين مني؟ لماذا تفعلين ذلك؟

الرغبة– لأنني أحبك.

الرجل(مهانا وغاضبا) – كاذبة! سأنسحب لا أدري إلى أين وستفقدينني.

الرغبة– تعال، تعال، لكي أضمك إلى جسدي بقوة، أنا لك، اقترب مني مرة أخرى.

(يفعل الرجل ذلك خجولا) اقترب أكثر، نعم الآن قبلني.

(لما يقبلها تضع يديها بين شفتيها وشفة الرجل)

انتظر، انتظر لحظة، آخر مرة، آخر مرة، لقد نسيت شيئا، خذ(تضع في يديه خنجرا)

الرجل– ما هذا؟

الرغبة– إنه الحرية، عد في الحال وحينذاك سأكون لك لكن لا تتأخر.

الرجل– إنه لأمر محزن ويأس بلا نهاية! لماذا تطلبين مني هذا؟ لن أفعل ذلك؟

الرغبة– بل ستفعله لأنني أنا من أصدر إليك الأوامر.

الحواس الخمس–نحن نطلبه منك ، وإن لم ...

حاسة النظر– سأقلع عينيك وستعيش بلا حراك في ظلمة أبدية مغلقة.....

الرجل– إنها بريئة، لماذا تتطلبن مني هذا؟

حاسة السمع– بلا كلام ولا ضوضاء... بل أصم مثل حجارة سقطت في أعماق البحر....

حاسة الذوق– سأجفف لسانك وأوزعه بين أسنانك وأضرجه بدمك....

الرجل– إنه لأمر فظيع...فظيع! لن أفعله.

حاسة الشم– سأعطل عمل رئتيك، وستجرحها الأشواق السماوية....

حاسة اللمس– سأقطع لحمك كتلا بلا حراك...

الرغبة– يعني ميت في الحياة، أو حي في الموت، برفقة حواسك الخمس لكنها مشلولة.

حاسة النظر– وتريد أن ترى، لن ترى شيئا.

حاسة السمع– وتريد أن تسمع، كل شيء سيكون صامتا.

حاسة الشم– وتريد أن تتنفس، لن تجد هواء على الأرض.

حاسة الذوق– ومذاق الحياة لن يكون سوى كهف خاو.

حاسة اللمس– لن تشعر بأي شيء، بالرغم من أنك تنتبه لكل شيء.

الرغبة– ميت حي، إنه أشد الألم، وأشد التعاسة تدميرا في العالم، هكذا ستكون أنت، اذهب وانجز ما أمرتك به ولا تتأخر ثم عد في الحال.

الرجل– ظلال سافلة! أصوات منكرة! عكرة وفظة، اصمتن! لا أريد أن أسمعكن، إلى أين تدفعنني؟ لن أذهب.

الرغبة (تدفعه)– اذهب وسأمتع روحك وسأجعلك تستنشق الحرية، عانيت كثيرا، اترك ولو لمرة واحدة هذا الكابوس، اذهب حالا!

الرجل– إنه لأمر مشين، مشين! الآن تعرفت عليك، لم أعد بحاجة لأن تذكري لي اسمك، لأنني لا أريد أن أسمعه، لقد تعرفت عليك جيدا، سأضربك وأقتلك بنفس الخنجر الذي وضعته في يدي لكي أقتل البراءة، وهو أشد ما يؤلمك. سأنادي وأصرخ لكي تسمعني هي وتستفيق من حلمها، وأقص عليها راكعا على ركبتي، وأصارحها باكيا وأمزق بأظافري فم الضياء الذي مازال في روحي، جريمتك، جريمة مزدوجة تجري في دمائك، قبل وجود العالم والنار والريح والبحر وكل الأشياء، بصقت بغتة على جدران بيتي السعيدة. لكن.... لكن لا... لن أوقظها، لا... لتنم بهدوء. (يرفع قبضته ببطء) قبل أن أقتلك، أريد أن أراك ميتة، أريد....

الرغبة– ها، ها، ها! (تكشف عن صدرها) هيا افعل ذلك، ها هو صدري، هيا اقتلني، افتح في داخله كهفا من الدم وادخل يدك حتى قلبي وامسكه بقوة، اعصره بشدة، بل أكثر من ذلك، آه!

الآن أشعر بأصابعك، كم أنا سعيدة! وبعد ذلك انزعه، ثم ارفعه ميتا وسط الظلال حتى يبلغ مسمعيك وسترى ما يقوله لك، اصغ جيدا إلى ما يخبرك به. إنه الاعتراف الأخير! إنه شغف ما قبل ميلاد اللهب وقبل دوران الكواكب! سيرويه لك بعذوبة وصمت كي لا تهبط الملائكة والنجوم لتسترق السمع. بعد ذلك

غطّة، ثم ضع بأذنيك حجارتين طوال حياتك، بعدها لن تسمع شيئا، عدني بذلك، لن يحدث أبدا أن تقع كلمات أخرى فوق كلماتك، ستخلط بكلمات سرك، هيا اذهب، تحرك.

(تمسك بذراعه وتمسك بنفسها طرف الخنجر.) اقتلني، اغرزه في داخلي، بطيئا أو بغتة، فالأمر سيان لي، قلبي ينتظره متحفزا لكي يتكلم معك.

الرجل(يسحب يدها بلطف)- لا...لا أستطيع... هذا مستحيل....آه!

(يستدير باتجاه البيت، تترك الحواس الخمس أشجارها وتصطف لتوسع له الطريق. تقف حاستا النظر والسمع سوية إلى الجانب نفسه بينما الرغبة وحاسة الشم والذوق واللمس إلى الجانب الآخر. يسير الرجل بطيئا بائسا رتيبا نحو غرفته حيث تنام زوجته.)

حمامة بيضاء

تغفو بين الغمام.

أود إيقاظك

لكنني لا أقوى على ذلك

لا أقوى على ذلك!

أود إيقاظك

تسير بين الغمام

لكنني لا أقوى على ذلك، آه!

تسير بين الغمام.

(يضاء نور من النافذة السفلى للبيت، كانت المرأة تنام بسكينة فوق فراش باتجاه الحديقة وشعرها متناثر فوق كتفيها وذراعها مكشوفة فوق الشرشف، يظهر فقط ساعد الرجل يحمل خنجرا، لكن ما زال يُسمع صوت حزين بعيد ، إنه صوتها.)

أود إيقاظك،

لكنني لا أقوى على ذلك، آه!

(يسود صمت، يوجه الخنجر باتجاه قلب المرأة، وقبل أن يغرزه بلحظة، يخيم الظلام، وفي الوقت نفسه تتنفس الحواس الخمس عميقا في الحديقة، تطفئ فوانيسها، فتسود العتمة.)

الرغبة(بصوت منخفض)- لقد ماتت.

(يسود صمت)

الرجل(يخرج بعد أن يغلق الباب كما المسرنم وما زال يمسك بالخنجر.)- أين أنا؟ ما أسمي؟ أصابعي تحرقني...

الرغبة- حبيبي.

الرجل- الأرض وظهري يتشققان، يتهشمان ويرتجفان خوفا، البحر أمسى كصنبور دم، بقيت يدي....

الرغبة- حبيبي، حبيبي.

الرجل- لها أصوات الظلال؟ من يعيش ويتكلم في هذا الكهف؟

الرغبة(تمسك به من ظهره بينما الحواس الخمس تضيء فوانيسها.)- أنا من أكلمك، أنا من أقبلك (فتقبله).

الرجل-(ساهما بلا ذاكرة)- أنت...أنت... من أنت؟

الرغبة- أنا حياتك الجديدة.

الرجل(بتواضع)- اتركيني... سأذهب إلى المحيط والبحر، وإلى الأمواج الباردة.

الرغبة(تنزع من يده الخنجر وترمي به إلى الماء ثم تبتعد عنه قليلا)- تعال إلي، إلى فمي وإلى جسدي.

الرجل- لا، سأذهب لأجمد يدي، لأطفئها في بحار شديدة البرودة...

الرغبة- لا، تعال... لتلهبها في النار التي تسير في دمي....

الرجل(ينظر إلى يديه)- آه، دم، دم، دم، دم! (يحملها حتى عينيه)

الرغبة(تمسك بها)- لا، لا! لا تلمس عينيك وإلا فقدت البصر! لماذا تبكي، اخبرني؟

دع هذه الدموع المؤذية العابثة التي تمنعك من أن ترى جمالي وجسدي المفعم بالسرور.

(تمسح دموعه) انظر إليه، انظر إليه، ها هو ماثل أمامك في منتصف الليل، هو ملكك، المسه.

الرجل– المس...المس...(يعاود النظر إلى يديه المضرجتين بالدماء) يا له من شقاء! إنها تحترق... سأغرق يدي إلى ما وراء عظامك، ثم ألمس، ألمس.... هذا مستحيل!

الرغبة– لا ، تعال، اعطني إياها. (تمسك بها) أريدها أن تداعبني (تغسلهما في البركة) إنهما نظيفتان وباردتان .... بلا بقعة دم....

الرجل (ينظر للماء)– دمها يحجب خيالها، خيالها هي، الذي يحيا دوما في هذه المياه.

الرغبة– اهملها، ولا تتذكرها، انظر إليّ فقط (تحرك الماء بيديها) الآن أصبحت المياه صافية. انظر أنا إلى جانبك، بل في داخلك.

الرجل–أرى الخنجر فقط وسمكة ميتة.

الرغبة– (تغادر البركة)– اتركها ولا تتذكرها، نشف يديك بشعري.

(ينشف الرجل يديه)

هكذا، هكذا.(تجعله يرفع رأسه إلى الأعلى) آخ! النجوم تتلألأ! قبلني.

الرجل(بعد أن يقبلها) جريمة بلا عقاب!

الرغبة– اتركني ولا تتذكرها، (تمسكه من ذراعه) لقد قبلتني، والآن اترك القيادة واتبعني حيثما أذهب.

(يسير بطيئا باتجاه البحيرة، تتبعه الحواس الخمس وهي في صف منتظم)

الرجل– احملنني حيثما شئتن.

الرغبة– لي، لي فقط.

الرجل– إليك، أمر لا حل له.

الرغبة– فقط لي.

الرجل– إلى الأبد.

الرغبة– إلى الأبد.

(لما يدخل الحظيرة تسود ظلمة ولم يعد أحد يرى الآخر. تتكئ الحواس الخمس إلى طول جدار الباب)

حاسة البصر– سعيد.

حاسة السمع– محظوظ.

حاسة الشم (تتنهد)– آه!

حاسة الذوق–سعيد.

حاسة اللمس– الحب، الحب!

المرأة(يطل طيفها شفافا من خلال بيت العنكبوت في آخر الحظيرة، فتظهر وهي تحمل مسدسا)– حبيبي، حبيبي! (تطلق رصاصة على الرجل ثم تختفي)

الرجل(يهوي فوق حزم القمح)– سيدي!....سيدي!....سيدي!

الحواس الخمس –(تطفئ فوانيسها سوية بعنف) ها! ها! ها! ها!

(ينبلج الضياء)

الرغبة(تخرج من الحظيرة)–لقد مات الرجل. لقد أشرقت، سنواصل طريقنا(تتبعها الحواس الخمس، تخرج من الباب الذي يطل على الساحل. لما تمر بجانب كومة من الكبريت يشتعل من تلقاء ذاته. يسطع نور الشمس فوق البحر البعيد العميق. تهبط عنكبوت كبيرة الأرجل ببطء حتى تغطي وجه الرجل، يفتح أحد الخدم باب الدار وهو يغشاه النعاس، وتتواصل الحياة.

تسدل الستارة

الخاتمة

الديكور– كما كان في المقدمة، يحل الظلام، يظهر الحارس الليلي جالسا فوق الحجارة، يشعل غليونه وهو يتثاءب ثم يدخن، يتأمل بطيئا حلقات الدخان، يدخل الرجل إلى الغرفة، ثم يهوي ويخر صريعا

وفي جبينه طلقة، يسيل الدم على وجهه وياقة قميصه الأبيض. لما يراه الحارس الليلي ينهض، ويستدير إلى الجهة اليمنى خفية كأنه لم يره حتى تلامس كتفه الرجل.

الحارس الليلي– (يربت على كتفه ملاطفا)– مساء الخير أيها الفارس. (يقف الرجل لكنه لا يجيب) كيف حالك في هذا الوقت الغريب في تلك الأماكن المهجورة؟ اخبرني.

(بعيدا من الداخل يدوي صوت مسدس.)

الصوت الأول– لقد مات! لقد مات!

الحارس الليلي– أستغرب من صمته، ما الذي ألمَّ به؟ لماذا لا يتكلم؟ هل نسيني؟ يبدو أنه لم يتعرف عليّ؟ يبدو كل شيء غريباً، إنه حقا فارس غريب غامض، من البديهي....

(ينحني الرجل وهو يترنح حتى كاد يهوي، فيسنده الحارس الليلي)

لكن... ما الذي حدث لك يا صديقي؟ انظر إلي.

(يعود الرجل إلى جموده)

أراك قد تغيرت كثيرا لقد اكتهلت وبدا على وجهك الحزن والسهر، ضعيف....(يحدق فجأة بالدم) لكن... قل لي: ما هذا اللون الأحمر الذي ينزل من جبهتك حتى قميصك أيها الفارس؟ لم ألاحظه...

الصوت الثاني– دم! دم!

الحارس الليلي– يا صديقي ، لقد حدث لك شيء رهيب، بح به لي، أمر رهيب أنت نفسك لا تقوى على قصه؟ أليس كذلك؟

(يبقى الرجل صامتا)

أولا، أيها الفارس، لقد استغربت كثيرا لما رأيتك تأتي في هذه الساعات في تلك الأماكن سالما مسرنما لا تقوى على حمل نفسك كأنك رجل ثمل. وبعد صمتك يا صديقي، صمتك... ذلك الحزن، وجهك نحيل وجبهتك مجروحة... ثم... هل تعلم أيها الفارس أن أكثر ما أدهشني هو شحوبك أكثر من الدم ومن صمتك؟ وحدتك يا صديقي وحدتك، لقد أتيت وحيدا، وحيدا بلا صحبة. هل تفهمني أيها الفارس؟ بلا أحد! هل بوسعك أن تجيبني الآن على سؤالي يا صديقي؟ على هذا السؤال فقط؟ معذرة، قل لي: أين امرأتك؟ أين هي؟ كيف لم تأت وهي تشبك ذراعك؟ اجبني.

الصوت الثالث– لقد ماتت.

الصوت الأول– لقد قتلها.

الصوت الثاني– لقد قتلها.

الحارس الليلي– إيه يا فارس! لقد ضاع كل شيء، الآن بدأت أرى بوضوح، لقد أتيت ميتا، لذلك لا تكلمني، هذا أمر طبيعي يا صديقي، طبيعي. كيف يمكن لك أن تجيبني؟ يا للرجل المسكين! سأتركك، لقد انتهى كل شيء، وداعا. (كأنه يذهب ويعود) لكن... لنرَ أيها الفارس، فأنا لا أريد أن اتركك قبل أن أفهم الأمر الآن يجب أن تجيبني لأنني أنا من أرسلتها إليك، اجبني. لماذا أتيت هنا؟ أية قوة دفعت بك لهذه الأمكنة؟ (يخفق قلبه) تكلم.

(خيم الليل وخفتت النجوم)

الرجل(ركع على ركبتيه)– سيدي!

الحارس الليلي– لقد تكلمت في النهاية، ماذا تريد؟

الرجل(متوسلا)– سيدي! سيدي!

الحارس الليلي– لماذا تتوسلني راكعا على ركبتيك وحيدا؟ هل ينقص جانبك الأيمن شيء ما. أين هي؟

الرجل– سيدي لا تسألني.

الحارس الليلي– أين هي.

الرجل– رجاء! لا تجعل لساني يتكلم، اتركه ميتا ثقيلا بين أسناني! يجب أن تعرف كل شيء.

الحارس الليلي– لا أراها إلى جانبك، أين هي؟ ماذا فعلت لها؟

الرجل– أنت قاس يا سيدي... لقد قتلتها.. أنت لا تتجاهل ذلك.

الحارس الليلي(ينهض الرجل معنفا)– لماذا قتلتها، قل لي؟ هل أساءت لك؟

الرجل(يائسا)– سيدي، لا تعنفني، اقرأ ما في داخلي، ووفر عليّ الكلمات.

الحارس الليلي– أجب على سؤالي.

الرجل– لقد هُزمت يا سيدي، لقد هُزمت.

الحارس الليلي– لا تكذب في آخر لحظاتك، بل أنت من هزمت نفسك.

الرجل– وأنت ما الذي فعلته؟ لماذا لم تأت لنجدتي؟

الحارس الليلي–تلفظت اسمي في لحظة موتك فقط. لما انتهى الأمر، مضيت سعيدا ولم تتذكرني أبدا.

الرجل–لم أكن احتاجك.... لكن...موتي يا سيدي...موتي! يا له من ظل داكن! من الذي أزهق روحي؟ متى فقدتها؟ أنا أسبح في الغمام.

الحارس الليلي– حينما ارتكبت جريمتك الثانية بين حزم القمح وبيت العنكبوت.

الرجل– الآن تذكرت يا سيدي... لكنها كانت هي... التي قتلتني.

الحارس الليلي– نعم، بطلقة.

الرجل– لكن اخبرني يا سيدي، هي كانت طيبة جدا! كيف فعلت ذلك؟

الحارس الليلي– أنت من أمرتها بذلك، أنا من أعطيتها مسدس العقاب.

الرجل (خائفا، لما رآها تأتي من العمق بنفس البدلة التي ترتديها حين أطلقت عليه الرصاص، المرأة تتقدم ببطء يسلط عليها ضياء باهت تحمل المسدس بيدها التي نفذت به.) – آه يا سيدي من الذي يتقدم نحوي؟

الحارس الليلي–إنه الندم قد تحول ظلاً.

(تواصل المرأة تقدمها حتى تمر بالقرب من الرجل وتباغته بحركة كمن تلمسه.)

لم يعد مجديا أن تحرق أصابعك بدم الجريمة المتيبس.

الرجل– لكن هي، هي من مرت! اتركني كي أركع لها، اتركني ولو من أجل لمس هواء ردائها.

الحارس الليلي– جرب إن كنت تستطيع.

الرجل(يحاول أن يقترب من المرأة بشوق لكنه لم يستطع أن يتحرك من المكان حيث يجلس) لقد سمرتني هنا يا سيدي، بين تلك الأنقاض لكي لا أطلب العفو الذي يلهج به لساني فيبلغها، ولتضمد جرحي، وتخيطه بنفحة من روحها.

(تدير المرأة ظهرها للرجل وتواصل طريقها نحو العمق مضطربة)

الحارس الليلي– حتى هي لم تتعرف عليك، لم تعد تعرف من أنت.

الرجل– وهل ستقوى على أن تتركني أتألم يا سيدي؟ ستختفي، اسمح لي ولو بكلمة، بصرخة، بشيء ما يحركني ولو للحظة، لربما يصل إلى مسمعها صدى حزني أو صفير ندمي؟

الحارس الليلي– قم بالتجربة وسنرى.

الرجل(بدون أن يتحرك)– من المستحيل أن أوقفها الآن لكي تسمعني يا سيدي، أتوسل إليك، حتى ولو بدون أن تراني، وبدون أن تدير رأسها إلى تلك الهيئة التي بشكل رجل.

الحارس الليلي(في الوقت نفسه الذي تختفي به المرأة)– المفقودون لا يقوون على السمع.

الرجل(بعد صمت يعتريه ذهول) – سيدي اعذرني اقترب مني، امنحني هذه النعمة.

الحارس الليلي(يقترب منه)– لم لا؟

الرجل(على مسمعيه)– أنت مجرم.

الحارس الليلي(يتراجع)– ماذا قلت؟ كيف تتجرأ على خالقك؟ أنت مدان، سأجعل الأرض تبتلعك في لحظات ومن فمها سيخرج عشرة آلاف لسان ناري، وكبريت أخضر سيقلع حنجرتك ويمزق لثتك.

الرجل– خالقي مجرم... يا سيدي! لما كنت على قيد الحياة أحطتني بوحوش لتضيعني. لما كنت على قيد الحياة، وكنت سعيدا أرسلت لي شيطانا، ملاكا من جهنم، والآن تريد أن ترميني إلى قاع الأرض. إيه يا خالقي! أنت قاتل، نعم ، لأنك يا سيدي بالرغم من أنك تعرف كل شيء، وتدبر كل شيء، وتعلم بكل نبض في مكامن نفسي وكل الأسرار المبهمة لروحي في هذا العالم، كان بوسعك أن تجنبني هذه الكارثة، بأن ترسل لي ضياء، نداء سماويا، أو كنت خلقتني بشكل آخر، أنا لست مذنبا، بل أنت....

الحارس الليلي– اخرس! أنت المسؤول الوحيد.

الرجل– كذاب!

الحارس الليلي– رجل متمرد، أمر محزن! أنت تحترق الآن. في بداية الأمر عندما أتيت بك إلى العالم، حذرتك بأن تأخذ الحيطة، فهؤلاء الحواس الخمس التي لا تنفصل عن بعضها سترافقك طوال حياتك،

وهن خطرات جدا، إن لم تعرف كيف توجهها ببراعة، ثم أضفت بأن تنتبه جيدا لأن خلاصك وهلاكك يكمن فيها.

الرجل– لقد ضيعتني يا سيدي، لقد ضيعتني! لكنك تعرف ذلك كله قبل أن تمنحني إياها، لكنك منحتني إياها لهذا السبب، فقط لهذا السبب. اسمعني: من أجل جسد ما ، كجسدي، تأجج اللهب وتفاقم الحزن والشؤم والدخان المتصاعد. أكرهك يا سيدي، أكرهك ولا أرتعب من البوح بذلك.

الحارس الليلي– أنت ستحترق بالفعل، تتكلم كما الملائكة المتمردين الذين يهزون بأجنحتهم حلما شريرا في باطن الأرض.

الرجل– أنا أحترق، نعم أعرف ذلك، وأتمنى أن تلك النيران التي تلتهم جذور روحي تخرج من مساماتي لتفقدك بصرك، وتجعلك رمادا جزاء لما فعلت بي من دون أن أفهم.

(من فوهة المجاري يخرج دخان أبيض)

الحارس الليلي– بل افهم، افهم....

الصوت الأول من جوف الأرض–إيه! إيه!

الرجل(فزعا)– من الذي يشتكي يا سيدي؟

الحارس الليلي– إنهم أصدقاؤك الظلال.

الرجل(يجثو على ركبتيه متوسلا)– سيدي أشعر بالخوف... فأنا لا أعرف شيئا، سامحني.

الصوت الثاني من جوف الأرض– تعال! تعال! تعال!

الرجل– لمن ينادون يا سيدي؟

الحارس الليلي– ينادون، ينادونك أنت.

الرجل– لي أنا؟

الحارس الليلي– لك، انهض.

الرجل– سيدي اتركني هنا جامدا جاثيا على ركبتي، إلى أين تأخذني؟ لا تعذبني.

الحارس الليلي (ينهض)- انهض(يأخذ به إلى مدخل الفوهة الأرضية) الآن ستطل على طريقك الجديد (وأمام المدخل) انظر إلى تحت.

الرجل(يغطي عينيه ويتراجع)- آه!

الحارس الليلي- هذا الطريق المظلم ستسير به حتى البئر السابعة في جوف الأرض.

الرجل- سامحني يا سيدي! لقد كافحت وقاتلت وحوشك الخمسة... صرخت حتى يئست واستسلمت. لا أريد يا سيدي، لا أريد! وأنت تعرف ذلك... لقد هُزمت، وأنت تعلم.... لأنك أنت من رتبت كل ذلك منذ آلاف القرون بل قبل أن تمنحني الحياة، ألا تشفع لي توسلاتي وبكائي وندائي لك....

الحارس الليلي(بدون أن يلتفت إليه)- هنالك في الأعماق، في الكهف الأخير تنتظرك من جديد جريمتك، حتى الخلود، لحظة بلحظة، ستعود لتنفيذها كالحلم، على مدى عمرك! إلى الأبد! لما تبلغ الأعماق ستخرج لاستقبالك قبضة تدمي ونار متأججة.

(تتصاعد حدة الدخان الذي يخرج من الفوهة الأرضية)

الرغبة (تخرج نصف جسدها من الفوهة بينما الحواس الخمس تطل بأقنعتها وهي تضيء الفوانيس)- هذه أنا ياحبيبي، خرجت لاستقبلك، ستعيش معي إلى الأبد اقترب مني، لم أنسك، تعال!

الرجل- هذه هي المرأة يا سيدي، هذه هي المرأة! لن أصغي لها أبدا! وهؤلاء هم الوحوش يا سيدي! ابعدهم عن ناظري! لا أريد أن أراهم بعيني المغمضتين! لتبقيا مظلمتين إلى الأبد ولا أرى تلك الفوانيس المشؤومة التي تعيش إلى الأبد في محجري الخاويين.

(تقترب حاسة النظر من الرجل وتسلط الفانوس على عينيه)

نعم، أنت، كنت أنت ناظري، العينان اللتان جعلتاني أرى ضياء الكواكب....

(تطفئ حاسة النظر فانوسها وتعود للنفق)

الحارس الليلي- .... لقد أمسيت كليل أسود معتم.

الرجل(لما تدنو منه حاسة السمع)- أعرفك كنت مسمعي الذي جعلني أسمع الموسيقى السماوية حينما كنت على الأرض.... (تعود لنفقها)

الحارس الليلي-... لقد أمسيت صامتا مطبقا.

الرجل(لما تقترب منه حاسة الشم)- آه! آه من ذكراك! عطر جلدك بين الياسمين والقداح!...(تعود إلى نفقها)

الحارس الليلي- لقد منعت الهواء الذي يحفز نبض الرغبة.

الرجل(تقترب منه حاسة الذوق)- لا تذهبي لقد تشققت شفتي من عصير الليمون، وفي لساني تترنم أملاح بحرية...(تعود لنفقها)

الحارس الليلي- أنت من رغبت في أن تتذوق طعم الموت فقط.

الرجل(تقترب منه حاسة اللمس)- لا! لم أعد أحتمل! اذهبي! لا، لا تذهبي! لأن يدي تغص بالذكريات... فأنا يا سيدي فقدت كل شيء إلا هاتين!... (تعود لنفقها)

الحارس الليلي- ... أنت جعلتها تتجمد وجردتها من الإحساس... لقد مات كل شيء في داخلك.

الرغبة- بقيت أنا لوحدي، لم يعد الآخرون موجودين، هيا بنا.

الرجل- إنها هي المرأة، هي المرأة! هذا هو الصوت الذي أغرقني! الذي لم أسمعه أبدا، هي المذنبة، أنت من أرسلتها إلي يا سيدي، لكي يخترق مسمعي ويجعلني أجثو على ركبتي عند هاوية ذلك الفرن. لماذا؟ أنت سمحت لي يا سيدي، لماذا سمحت لي؟ فأنت الخير ألم تخلقني فقط للسعادة والمرح! قل لي قبل أن يصمت هذا الفم ويلتهمني من قبل نور الكواكب. لا تغرقني في هذا الكهف بدون أن أعرف! (ينظر الرجل إلى الأعلى في اللحظة نفسها التي اختفت فيها ضياء النجوم)

الحارس الليلي- انظر؟ لقد خبأت النجوم، هل فهمت؟

(تنكمش كتفا الرجل بدون أن يفهم) كياني برمته سر، لماذا أبوح به لك؟

الرجل- أكاد أن أستعر كرها لك.

الحارس الليلي- تتكلم كما الملائكة المكسورين. لكنك ما تزال أقل شأنا من أقل واحد منهم، مجرد رجل مدان!

(يتصاعد الدخان بينما تتلاشى الرغبة رويدا)

أصوات من جوف الأرض_ سيدي! سيدي! سيدي!

الحارس الليلي- اسمع أصواتهم، إنها تناديني لكي تلعنني.

الرجل– أنا أيضا سألعنك.

الحارس الليلي– يمسك به من ياقة قميصه ويسير لكي يرميه في الفوهة) لم تعد من هذا العالم فروحك الآن ستزدريها ألسنة اللهب، وسيحترق جسدك أيضا.

الرجل– أنت ظالم.

الحارس الليلي– أعرف جيدا ما أقوم به.

الرجل – أمقتك

الحارس الليلي– وأنا سأمقتك، إلى الأبد.

(يختفي الرجل، تنفث الفوهة دخانا كثيفاً أسود، بعدها يغلقها ويقفلها بالمفتاح أكثر من مرة) هذا هو حكمي هاوية عميقة (يسود صمت ويختفي بالعتمة).

يسدل الستار

لاكايارذا

La Gallarda

شخصية المقدمة

بابو، فلاح عجوز

سترة ملونة ترمز إلى لاكاياردا وهي تعانق ثورا ملونا، يحيط بها أربعة رعاة بقر يحملون رماحهم، تظللهم سماء غائمة، أمامهم إلى الجانب الأيمن شجرة سنديان(تبقى حتى نهاية العرض المسرحي) جلس تحتها بابو على حجر، يغشاه النعاس وقد اتكأ إلى جذع الشجرة، عجوز ملتح بلحية أكل عليها الدهر وشرب. بينما غليون سيجارته المعدني لا يتوقف عن الشخير.

بابو: (بعد صمت ساخطا) – هل ستتركيني لكي أنام أيتها الثملة؟ آه من عيني! فهما لاتستطيعان أن تتحملا فضيحة كهذه يا ابنتي. سيجارة...سيجارة.... أين احتسيت الشراب أيتها المخبولة؟ تتألمين لهذا العجوز.... سننام سوية.... هيا بنا.

نعم؟..لا؟ هيا، هيا! أكثر، أكثر! اتركي شجرة السنديان هذه وازرعي بدلا منها سكنا مدويا في مسمعي. (يقوم بحركة وكأنه يطرد (دبورا) إنه دبور، وأنت أيضا؟ يا لرقتك! تترنمين في القيلولة وأنت تخيطين بإبرتك. هل ستوهمينني بأنك ستسرجين حاجبي، وإن شئت، تبدئي بخياطة شفتي؟

(يرقد نائما من جديد)

تعالي، تعالي الآن، يا خياطة الأحلام الرائعة لعلك تطرزين جبهتي بإبرتك المسمومة. هل ستذهبين بدون أن تجرحينني؟ هل ستتحولين إلى نحلة وتجعلين خمائل الورد المفضضة حلوة المذاق! وداعا...سأخلد للنوم.

(يتعالى خوار وجلجلة) آه! إنه لأمر مستحيل! قرع أجراس.... وسجائر... وثيران.... وثيران...

(يتعالى صوت نهيق)

وفوق كل هذا نهيق حمار عاشق! يا لها من قيلولة هادئة! أريد أن أنام، لقد قلت لنفسي: أغصان السنديان سترمي بظلالها فوق عيني لتظللني. لكن... الدبور... وجلجلة الأجراس.... وخوار...

(ينظر إلى الجمهور)

ما هذا؟ ماذا أرى؟ أناس، إضافة إلى...يا إلهي! ويجلسون منتظرين! هل ستنتظر الناس يا سيدي وهي تجلس؟ هنا، يعرفون اسمي، الأول والثاني، بدون مفاجأة، إنها أسرار الدراما، أسرار تحتويها مقاعد نفد صبرها إن كان من يشغلها لا يخفي نفسه. اسمي: بابو، هل سمعتموني ؟ لا تفكروا، ولا تكتبوا فيما بعد ما أجهله أنا، فأنا كل شيء، جئت بأكملي متجاوزا مئة عام.

هل تسمعون الشجرة؟ أنا الشجرة، هل ترون الريح؟ أنا الريح، والثلج فوق قمم الجبال وخرير النهر، وخوار القطيع، والثور الذي يختبئ في أحشاء الناس المرتجفة. الثور، الثور، الثور، العجل الصغير الذي يتأمل البرسيم بشوق بسبب جرحه، وغضب بقرة شاردة في الحقل لما ينتزع منها الراعي أبناءها الذين تربوا في المدن. لا أحد يخطئ، أيها الحصان لا تخدعني: فأنا هو أنت، بوسعي أن أكون في داخلك من دون أن تعلم بذلك، كجلبة، كصدى كئيب لأصوات تائهة أو كصمت أغنية وكصلابة الأغصان. فالأنثى لا تسيء الظن بالذكر، ولا بحبيبها المدفون بين التواءات شراييها الغيور. أنا عبارة خائبة لظل متناثر، أجزاء غليظة لمشهد بسيط، رجفة لجوف أرض تؤدي إلى تراجيديا، تلك التي تخشى أنت يا سيدي الحصان أن تفصح عنها بصوت عال، سيدتي أنا صوت إنذارك الأصيل. بابو من لحم ودم، بابو المتخفي دوما. بابو بأجنحته التي تنزف دما، بابو بنحيبه وزغاريده، بابو المسكين الباكي.... إيه! لا تبك لأنني لا أقوى أبدا على القدر. نعم إنه يرغمني....

يسود صمت.... هل ستسامحينني الآن.

(تُرفع الستارة الملونة)

شخصيات الفصل الأول

لوكاس باروسو: العمدة.

بابو

لاكاياردا: راعية بقر.

مانويل سانجث: راعي بقر وزوج لاكاياردا.

خوان دالوبيغا: راعي بقر.

بيدرو رولوبا: راعي بقر.

راعي الغنم 1

راعي الغنم 2

وقعت هذه المأساة في السهل الذي يتوسط إسبانيا، على ضفة نهر في أحد وديان الجبال.

الفصل الأول

غرفة كبيرة في بيت ريفي، باب كبير يطل على الحقل، وإلى الجانب الأيسر يوجد سرير مرتفع وضع عليه فراش مطرز ملفت للنظر، قرب السرير، على الجدار، علق رأس ثور أسود كبير، وضعت تحته طاولة. مقاعد مريحة كبيرة الحجم...إلخ. تناثرت فوق الأثاث باقة ورد، ونقشت فوق الجدار زخرفة راقية كمذبح كنسي، بينما رقدت لاكاياردا في فترة القيلولة فوق الفراش.

بابو(يدخل الغرفة ويقف أمام لاكاياردا)- كاياردا أنت نائمة:

سيوقظك ثور ليغير حياتك

(ينفتح الباب الكبير، فتدخل منه أشعة شمس الحقل كأنها السيل)

غرفة مغلقة: سيضيئك النور لتمسي كلون الدم

(يدير رأسه للثور)

أيها الثور أنت تحلم الآن:

ستجمل والدة ابنك العجل الصغير.

(يخرج من الغرفة، ويجلس مرة أخرى تحت شجرة السنديان)

لاكاياردا(تستيقظ كأنها في حلم وتتحدث مع رأس الثور)-

لقد نمت، بينما أنا نائمة، بقيت أنت بلا أزاهير.

ما الذي يجول في خاطرك بخصوص راعيتك يا حبيبي؟

لقد طرق النور بابك المغلق

لما كنت تنتحب،

لقد كان يومك

يا حبيبي.

لما أنام، تبقى أنت بلا أزاهير.

كيف لي أن لا أتوجك بالأزاهير؟

في ذكرى موتك، سأكون النور

الذي أول من قصد زيارتك

يا حبيبي.

في ذكرى مقتلك الحزين،

كيف لي أن لا أوقد لك الشموع يا عزيزي؟

من بوسعه أن ينسى نزيف جرحك،

لعله يرى الثور الملون

من خلال أشواقك

يا حبيبي.

أنت يا ثوري رسبلاندورس زينة الأنوار

كيف لي أن لا أزينك بالألوان؟

يا حبيبي.

رأسك معلق على هذا الجدار،

والابن الذي التهب بدمك

يرعى في مراع آمنة

يا حبيبي

رعاتك يطعمونك النجوم.

كيف لي أن لا أتذكر آلامك؟

(لاكاياردا، بينما بابو يواصل حديثه وهو يصنع تحت رأس الثور مذبحا صغيراً يزينه بالشرائط والورود، ليضعه فيما بعد على مسند ثم يشعل في كل قرن شمعة)

بابو(يقطع مقدمة المسرح ببطء من جانب إلى آخر)

انتظري يا لاكاياردا.

من هذا الباب

لن يدخل الرجل

الذي تنتظره لاكاياردا.

ليجلب معه نسيم النهر،

و قساوة الجبال،

إصرار الريح

المتحررة من المراعي،

وأمنية متأججة

لثور في فصل الربيع.

ستقفز الأشواك من السياج...

الآن تصل...

آثار أقدام ملتهبة

تدعس العتبة حذرة...

هو يعلم مقصده.... ثم يدخل.

(يظهر لوكاس باروسو يحمل باقة ورد حزمت بشرائط حمراء وزرقاء وبيضاء اللون، يقترب خلسة من لاكاياردا، ويطوق خصرها بلطف، يذهب بابو، بعد أن يمكث للحظات في بداية المشهد المتواصل.)

لاكاياردا– مانويل، رسبلاندورس؟

لوكاس– كاياردا، بل مانويل سانجث.

لاكاياردا(غاضبة)– لوكاس باروسو!، هو أنت؟

لوكاس– لا يا امرأة. بل هاتان يداي...

هو سيتأخر... ذهب بعيدا... ويداي.... لم تكن تعلم أنهما تناسبان خصرك كما يدي زوجك.

لاكاياردا(تخطف وردة القرنفل وترميها فوق السرير)

إنه هلاك داري، ولعنة الحقول، أمقت الراعيين

اللذين يعتبران الثيران أكثر من مجرد حياة!

لماذا أتيت يا لوكاس يا عمدة النحس؟

أم ثمة أمر غامض يغلي في دمك ويثير كراهيتك.

عد من حيث أتيت يا منبت الشر!

هيا اذهب يا طائر العِقاب، يا نبتة شوكران المراعي (*نبات مسموم*)

لتهرب إلى البرك الراكدة العفنة.

لوكاس– لماذا أتيت هنا يا لاكاياردا؟ لأسأل عن تاريخ الطوق المطرز (*الخاص بالثور*) الذي يجمع هذه الأزاهير.

اسأليه يا كاياردا، اسأليه عن ذلك الثور، عن قرنيه اللذين أضأتهما بنفسي ولي تستجيبان وذلك المذبح المفضض بالعطور والشرائط الذي يحتفي بذكرى عامين على وفاته. من أعطاك رأسه؟

لاكاياردا– لماذا أعطيتني إياه؟

لوكاس– كاياردا، إنه لوالد الثور الملون، رسبلاندورس، الثور التي تحبينه مثل ابنك.

لاكاياردا– لماذا أعطيتني إياه يا لوكاس باروسو؟، اخبرني. لماذا؟ أنت لست ثورا تتصدى للمجابهة.

أنت تتصدع مهزوما بدون أن يثيرك أحد.

لوكاس– شُل لسانك... أنا أعلم أنك تحبينه. إنها مجرد حجارة كاذبة تبصق عليها شفتاك. لطالما كنت أنثى شرسة تصد نظرات الرعاة المقلقة. لتخبرك الظلال اليوم بلا هوادة أنها ستعكر ما يخص بيدرو رولوبا وخوان دالوبيكا. ولتخبرك عما أنثره من فزع بين الثيران الشجاعة، بلا أحلام.

لاكاياردا– إنها تناسبك يا لوكاس، تتأرجح كالأعمى بين الحناجر ماضيا لوحدك بين المنحدرات. اتركني هنا بسلام، بعيدا عن قطعان الماشية، وحيدة بين هذه الجدران. حيث جلبتنا أنت إلى أكثر الزوايا كمدا، اذهب من هنا!

لوكاس– تقع عيني دائما حيثما أحلم، على كاياردا شرسة، تقع دوما. سأسمح لها أن تجول في تلك الحقول الدافئة الواسعة ومنحدرات جسدك الداكنة.

لاكاياردا (مبتعدة)– أيها العمدة اذهب إليها إن كنت تجرؤ....

لوكاس– يا راعية البقر، تلمحين لي أنني بلا شهامة....

لاكاياردا– لا تنس بأنني أهزمك في حقل مفتوح يا لوكاس.

لوكاس– لا أنسى بأنني أنا من علمتك يا كاياردا.

لاكاياردا– أيها العمدة، أنا هنا....

لوكاس– يا راعية البقر، أنا لك....

لاكاياردا– اقترب...

لوكاس– منذ مدة أرغب فيك، أحببتك وأنت بين أزاهير فراش مطرز كأعشاب نهر طرية.

لاكاياردا (لتحرضه)– أكثر يا لوكاس، هيا إلى الأمام!

لوكاس– أعرف ترويض الوحوش.

لاكاياردا– لكن ليس اللواتي يهاجمن وعيونهن مفتوحة. تعال يا لوكاس باروسو. ليس لديك الجرأة؟ أم أنك تتحفظ؟ أين ذهب غضب الفحل الذي يتعرف من بين التلال على رائحة الأبقار الغيورات؟ هيا انقلع!

لوكاس– كاياردا!

لاكايارادا– لتمزقك حوافر الأرض في قبو يحرق دمك (تسير نحوه) خذني يا عمدة، لو لدي حجران يفقعان عينيك برقة؟(تبصق عليه ثم تدير ظهرها له)

لوكاس– أحبك هكذا يا راعية البقر، بصراخك وأذيتك، بكلماتك المشوهة المرتجفة. قصدتك ووجهي ساخن بسبب زبد فمك وشوق يصرّ في صدرك. (يحاول أن يضمها إليه) كاياردا....

لاكايارادا(تدفعه وتجعله يتراجع)– لوكاس! لوكاس!

لوكاس– يا ابنة الثور الشرير!

لاكايارادا– اهرب من هنا يا عشبة خائنة موحلة.

لوكاس(يحاول أن ينهض)– سأغرزك على كتفي حتى لو كتمت أنفاسي.

لاكايارادا(تلتقط من على الجدار رمحا)– نعم قبل أن أغرز بك هذا الرمح.

لوكاس(ينهض)– سأنتقم يا كايارادا!

لاكايارادا– لهذا السبب أنت ملطخ بالوحل، بل حتى وحل البركة الوسخة يبصقك.

لوكاس– سأنتقم يا كايارادا! لا تنسي! أقسم لك بروح الثور الملون الجميل، هذا الثور الذي تحبينه أكثر من ابنك.

لاكايارادا– ذات يوم ستجلب لي قلبك داميا.

لوكاس– حينما تلمسينه ستعرفين أنه لزوجك. (يغادر)

لاكايارادا–(تجلس مفكرة)–

رعاة بقر وثيران شجعان

بجانب الجبل

شجاعة بين رعاة البقر

وبين الثيران، شجاعة.

بابو(يدخل من الباب الكبير ويتردد صدى كلامه ، بدون أن تراه لاكايارادا)– اليوم أنت راعية الأبقار الوديعة

لاكاياردا–

راعية ثيران شجاعة

بين القمم البيضاء

كيف تمكنوا من أن يدعسوا الثلج

ويسحقوه!

بابو– اليوم راعية بقر داخل البيت.

لاكاياردا– أشعر أن في أحشائي ثوراً أعمى

نائماً

أمتلكه حقا

وأصغي لندائه

أعلم أنني سأخور بين الجبال

وسأقتل بين الأغصان.

بابو– اليوم.... راعية البقر، في الغد القريب.

(تخرج من الدار، وتتجه يسارا، يدخل مانويل سانجث)

لاكاياردا(بلا حراك تنظر لزوجها)– خرجت فجرا....

مانويل– وعدت عصرا.

لاكاياردا– من ناداك؟

مانويل– شخص لم يكن موجودا، لوكاس باروسو.

لاكاياردا– لوكاس؟

مانويل–لوكاس، لوكاس! العمدة الذي ترك ظلا مريبا

في هذا السرير

لكي يغرقك

في بئر بلا قاع فيفصلنا عن بعضنا.

لاكاياردا– هل رأيت الثور الصغير؟

مانويل–

أكلمك عن أشياء أخرى.

عدت من المراعي وهذه الدار

منعزلة كراعيي بقر

فقدا قطعانهما في الجبال.

لاكاياردا–هل رأيت الثور الصغير؟

مانويل(بجفاء)– نعم.

لاكاياردا– ما الذي يغضبك؟ أليس هو ابننا يا مانويل؟

حلمت ذات ليلة أنه كبر في أحشائي،

ومن صدري أرضعته. لأنني والدة ثور صغير،

أمرجحه بالمهد بين الأعشاب،

وحينما رأيته بين البرسيم،

غطيت جلده بأزاهير القرنفل الملونة،

وبعدها، تصد والدة العجل

ريحا تدنو من الأغصان

أطرافها من نار يخيطها الموت

في الدم كرشقات غضبٍ.

لقد حلمت بها، امتلكتها، امتلكتها

شعرت بها ترفرف بين أشواقي

ولما انبلج الصباح نظرت إليه،

بينما عيناه الصغيرتان ترمقاني بنظراتهما.

من سيرافقه ليرى الجداول،

و يخرج من الحظيرة فجراً ،

لينطلق صباحاً مع الهواء

كنسيم شفاف جذلا!

إنه ثور رسبلاندورس!- أسنانه

كزهرة صفراء تتأرجح،

تأتي، متماهلة كشعاع مدلل،

ليدخلها في ثقب تنورتي.

هنا يا رسبلاندورس!، ثور شجاع!

نجمة خاطفة، تنتظم

في دوامة عابسة،

كادت تشنقني من حنجرتي.

كان هو مسرتي ، إلى جانب زهرة الجبل،

كان هو فؤادي، إلى جانب زهرة مائية.

بعدها، أحببتك، أنت فقط

قدري أن أحب الثور الذي ما فتئ يناديني.

لما نتبادل النظرات من بين الزوايا

أشعر أنه يبكي على وسادتي

أنت تحبه، يا مانويل: إنه ابننا.

ابن الحقول...هو لم يقطن دارنا

ولم يمض وقتا

لنصبوا بأن يكون من دمنا.

أين رأيته؟

مانويل– في بستان على النهر.

لاكاياردا– وهل رآك؟

مانويل– جبهته مرفوعة،

وقرناه يعشقان نباتاً

يفوح بعطر الزعتر والمرقدوش.

لاكاياردا– هو ربيع الثيران.

هل سألك عني، كاياردته؟

ماذا قال لك؟

مانويل– قال.... (يصمت)

لاكاياردا– لا تريد أن تخبرني؟

فأنت يا راعي البقر لا تصمت أبدا.

لو حطمتني سيحدثني الحجر الذي سترميني به عن كلماتك

ماذا قال لك مانويل؟

مانويل(في العتمة)– لأن أعود

إلى كوخي، عبر أقصر طريق...

وها أنا....

لاكاياردا– سحابة عاصفة

لن يجليها حتى نور حبي.

أفضلك على كل رعاة البقر

مانويل– من بعد خوان دالوبيغا أبحث عنك

بين قصب ضفاف النهر،

وعيناي تتطلعان لتجدا امرأة وديعة

لاكاياردا(بنعومة)– لقد كنت معك رقيقة

وامرأة شجاعة مع بقية رعاة البقر.

مانويل– .... بينما بيدرو رولوبا كنت تهيمين

مع رسبلاندورس حتى الفجر وحيدة

فيتعالى خواره، في منتصف الليل، وتقتفين أثره عبر الوديان.

لاكاياردا(بمحبة)– قبلني هكذا، يا راعي البقر العاشق.

أنت ترتجف غيرة وغضبا.

مانويل– بينما لوكاس باروسو....

لاكاياردا(معنّفة إياه)–

لا تكذب! لا تذكر هذا الاسم المشؤوم!

بسببك، حطم ضجيج المواشي صمت هذه الدار،

وأمست المراعي حديقة صغيرة تعيسة،

تضيئها بقرتان بلا روح.

مانويل(يجعلها تتراجع على مهل)–

هو كان يحبك....

لاكاياردا– منحني مشاعر جنوح الشباب.

مانويل– هوكان يحبك....

لاكاياردا– بل كنت أحتقره.

مانويل(ينظر إلى أزاهير القرنفل فوق السرير)

هو كان يحبك... عيني تراه.

لاكاياردا– انها أكذوبة....

مانويل– لطالما نظر لك يا كاياردا.

أراه في غصن القرنفل

وذلك الطوق الأحمر والأزرق والأبيض.

لاكاياردا – تركته هنا، لكي تراه أنت...

مانويل– وفي حافة الشرشف المطرزة....

لاكاياردا– إنها تحمل تاريخه....

مانويل– أعني ما يخص المتوفين.

لوكاس باروسو، عمدة من عائلة سيئة

ينشدون قصائد حب ليقتلوا

بيدهم خفية من الخلف!

لاكاياردا– (تلتقط الرمح)– انظر إلى هذا الرمح.

مانويل(يأخذه منها)– لكنني لا أراه،

لأنه غرز في حنجرته حتى مقبضه.

لاكاياردا– هرب كالجبان...

مانويل– فهمت الآن،

لوكاس باروسو الحزين، كما ناديته.

لاكاياردا– سأساعدك لتقتله.

مانويل– يا للوحش البائس!

سأقتله أمامك، بعدها سأسحله،

وسط دهشة جموع ثيران،

حتى يتلطخ الطريق بالدم.

لاكاياردا– رغم أنك ستسمرني بالأرض بعدها

لكن من أجلك سيكون موته انتقامي.

(يخرج مانويل سانجث وبيده الرمح، تتناهى ضجة أجراس وصهيل خيل وصرخات، يظهر بابو فجأة من جهة شجرة السنديان)

بابو–

أين رحل راعي البقر الحزين؟

أين رحل راعي البقر الغامض؟

لم يعد يبلغ مسمعي هبب ولا صراخ ؟

لم أعد أرى على بابه قبعات براقة؟

(يدخل الشاب الأول)

الشاب الأول– كاياردا إنهم يحملون الثيران إلى القرية.

الشاب الثاني– بمناسبة عيد وادي راموس.

(يرخي مانويل سانجث الرمح متصنعا الهدوء، يدخل خوان دالوبيغا يحمل مقلاعا)

خوان– خوان دالوبيغا راعي بقر يسير على قدميه.

بيدرو(يدخل بيدرو رولوبا يحمل عصا)–

أما بيدرو رولوبا فيأتي ممتطيا جوادا.

خوان– تعال يا مانويل سانجث، يا راعي بقر ضائع.

بيدرو– تعال يا كاياردا لكي تحملي الماشية.

بابو– ألا تبصرون اليد التي تحمل الرمح.

ألا تبصرون الموت الذي تحمله اليد.

الشاب الأول– هل لاكاياردا تكره الثيران؟

الشاب الثاني– هل نسيهم مانويل سانجث؟

خوان– لمانويل سانجث ثلاثة أبناء.

بيدرو– لكاياردا ثلاثة أبناء شجعان.

بابو– آخ مانويل سانجث لا تخرج إلى الباب!

آخ مانويل سانجث لا تنظر إلى الحقل!

(يغادر الشابان، ويدخل لوكاس باروسو وبيده عصا)

لوكاس–

جاء لوكاس باروسو ليحضر المبارزة.

جاء كراعي بقر على راكبته.

بابو– نعم سيف مانويل سانجث يرتجف.

و شفتا لاكاياردا ترتجفان.

لاكاياردا– ماذا تريد يا لوكاس باروسو؟

لوكاس– يا راعية البقر، أريدك فقط أن تنظري إلى المرج.

مانويل– لوكاس باروسو، ما الذي ترمي إليه؟

لوكاس– يا راعية البقر رأيتك في ساحة احتفال وادي راموس.

لاكاياردا(مهددة)- لوكاس باروسو.

لوكاس (بهدوء)-

كاياردا، لا تنظري إلي؟

إنهم ثلاثة أبناء لوحدهم. تعال لأخبرك سرا عن سيمائهم،

إن كنت لا تريدين أن تري بعينيك.

بابو- عسى أن تملأ الريح أذنيك

عسى أن تنكسر عيناك.

لوكاس-

أحدهم مبقع بالياسمين، والآخر داكن اللون

وأصغرهم عمرا، كقرنفلة ملونة.

بيدرو- هل تريدين يا كاياردا أن تتعرفي على رجالك الثلاثة؟

خوان- هل تريدين يا كاياردا أن أجلبهم لبابك؟

بيدرو- العاشق هو اسم ذي اللون الداكن.

خوان- واسم ذي اللون الأبيض آكل النحل.

لوكاس- والذي يبدو كحديقة غناء

رسبلاندورس سيكون في قبضة يدي.

بابو-

في داخلك ستموت أحشاؤك

تبدين يا كاياردا بكماء منكسرة.

مانويل (يتقدم خطوة وهو يحمل الرمح)-

سأقتلك....

لوكاس(هادئا وساخرا)–

عجل مقدام،

اتركني، فأنا لست بثور سيء الصيت.

لو كنت حقا راعي بقر مقدام، اغرز هذا الرمح

حيث يجب أن ينغرز.

بيدرو(ساخرا) – أليس مانويل سانجث فتى مكافحا؟

خوان–

أليس مانويل رشيقا ومقداما؟

بيدرو– من يشبهه بلونه القرمزي؟

خوان– من يشبه مانويل وهو يشهر سلاحه؟

يحمل الأعلام من الأمام ومن الجانب! (*الطريقة التي يقتل بها ثور المصارعة*)

بيدرو– غرور وحذلقة ومهارة بالقتل!

خوان– إن لم يحضر مانويل سانجث الحفلة،

من سينكر أن مكانه خال؟

لوكاس– كنت تقتل ثورا في كل عام من الأعوام المنصرمة

وقد حان دور رسبلاندورس هذا العام.

بابو– سينفجر في صدر مانويل سانجث غضب شاب.

مانويل–

لوكاس باروسو، من يقوى على وحش،

يستحسن أن تفعل ذلك مع رجل له ساعد.

لنذهب إلى مصارعة الثيران، لئلا أغرز رمحي

حيث يجب أن ينغرز.

بيدرو– ستحملك الملائكة براحة يديها!

خوان– وتطير فوق كتفها الأزرق!

لوكاس– بسبب فعلك المشين، يرن الآن

تصفيق الحمام السائب

(يصفق العمدة ورعاة البقر بأيديهم ويفتعلون ضجيجا ساخرا، فينسحب مانويل سانجث من الباب الأيسر)

لاكاياردا(تصر على أسنانها مهزومة، كأنها حيوان جريح، تذهب نحو رأس الثور وتجلس تحته)–

نبتة سوء، ونبات قراص

عمدة سوء طالعي.

عدت لتنتقم،

أعلم أكثر من أي شخص، ولا يعلم

أيا كان ما يعني أن أنتزع دمك كله

لقد انحنى خصري ألما

كما لم ينحن خصر أية امرأة.

أنت لوحدك تدرك،

ثور ميت، أنت وحدك فقط

تعلم علم اليقين معنى الموت.

لوكاس–

من يراك هكذا يا كاياردا، ويعلم أنك خبرت الحياة

هل غضبك المهزوم، كسر عزيمة كتفيك،

وقلبك مغلق، بلا صرخة؟

أين هي كاياردا، التي كانت تتصدر

المقدمة ببسالة، وتمضي برشاقة؟

أين تلك المهاجمة الخطرة،

بخوارها الداجي القاتل؟

عيناك اللوزيتان المتوهجتان،

كسلاسل لرعاة متمردين، لما يرونك يمسون ظلالا

لجمرة داكنة تحتضر؟

ما الذي يروضك، هل هو أرق الجبال؟

ما الذي يجعلك جبانة، الحسد من الأنهار؟

أذهبي، وغادري هذه الحقول

حيث تمضي البسالة سوية مع الخطر.

كأنك لست براعية

بل فتاة ترعى قطيعا من غنم المرينوس! (نوع من سلالة الأغنام)

بيدرو(يتقدم ويستفزها بالقبعة)

أيتها الفتاة الشابة ذات العينين المنكسرتين.

اقتربي مني، فأنا لست ثور مصارعة!

خوان(يستفزها بالزهور)-

اقتربي مني أيتها الشابة، اقتربي،

فأنا أعبد السيدات، وأبحث عن الناس!

لوكاس(يستفزها بتحريك سترته)-

أيتها الشابة بعينيها السوداوين،

تعالي إلي، فأنا أعبدك وأعشقك!

بيدرو–

اتركيه يمسك من قرنيك

ومن ثم يصطحبك، إن شئت، إلى الحقل.

ثلاثتهم–

اقتربي مني، فأنا لست ثور مصارعة.

خوان(يقوم بحركة كمن يرفرف بالعلم)–

أيتها الشابة ذات العينين الكئيبتين،

اقتربي مني، فأنا لست ثور مصارعة!

بيدرو(يقوم بالشيء نفسه)–

اقتربي مني، تعالي أيتها الشابة،

فأنا ثور وديع ولا أبغي القتال!

لوكاس(يشرع في القتال)–

دعيني ألامس قرنيك

وأحملهما معي، إن شئت، إلى معبر النهر!

الثلاثة(يضحكون)–

اقتربي مني، فأنا ثور مصارعة!

(يخرج مانويل سانجث، يرتدي ملابس فاخرة، يحمل الرمح ومعطف المصارعة. يسود صمت.

كاياردا، حزينة ببطء، تقترب منه. يخيم الغروب على الحقل)

بابو–

الآن سيذهب مانويل سانجث مع معطفه.

يضيء كبرياءه

حزام قرمزي،

قميصه ثلجي اللون

ياقته كرغوة مموجة

تطوق غضب حنجرته الجافة،

كحديقة من شجر القطان

وعل كتفه، سترة جليدية،

وقبعته، كغمامة

تظلل وجهه،

بين الصدر والظهر،

زهرة حبه الخاص.

يركض نحو لاكاياردا

بدون أن يرى أو يتكلم.

فيتجمد في يده الرمح

لاكاياردا(تمنعه)–

هل ستذهب للثور؟

مانويل– أنا دوما شجاع.

لاكاياردا(بحزم)–

هل ستذهب للثور؟

مانويل–

هذا ما أتمناه.

لاكاياردا(بدون إرادتها تصرخ)–

هل ستذهب للثور؟

مانويل–

ليس هناك صرخة تمنعي.

لاكاياردا(بلا وعي منها تصرخ)–

هل ستذهب للثور؟

مانويل– ليس هناك صرخة تقيدني.

لاكاياردا–

ستقتل الثور يا راعي البقر!

الثور يا مانويل سانجث، هذه الدار ليست

حظيرة للرسن ولا للبهائم

لربما الخالق يسبب قدرا فيعامل رسبلاندورس

حياتك كما تعاملت معه.

لربما الخالق، يسبب قدرا،

فيقتلك الثور الملون إن قتلته،

وسيطوف بك القرية مسحولا بالعلم،

من طرف نعلك القروي، محتضرا،

إن غرزت في قلبه رمحا

في قلبك سيغرز قرنه

قد يسبب الخالق قدرا لأن يوصلك إلى هذا الباب،

مشرعا كصليب صلد، بعربة

هشمتها الهراوات،

جراء العار، ثيرانها منهكة

يتناثر نعلها، وقبعة قد جُز رأسها،

هائم في الحقول!

مانويل– كاياردا!

لاكاياردا(تدفع الجميع لكما)–

الثور، الثور، يا مانويل سانجث!

الذي أرضعته الحليب بيدي!

أيها العمدة، في قمم الجبال والشعاب!

هناك حتى الذئاب لن تحميه!

ولن تلمحه حتى العصافير!

انظروا فكياردا مازالت شجاعة

تتعقب أثرا كيلا تفقده،

وفي أحشائها يكمن ثور صغير،

ولما قتل أطلقت خوارا.

(هرب الجميع، تتعالى ضوضاء خيل وصرخات، بينما يسدل الستار، جلس بابو تحت شجرة السنديان، يطأطئ رأسه كالنائم، ثم تغرب الشمس)

الفصل الثاني

الشخصيات نفسها

إضافة إلى بعض فتيان الحقل.

(نفس الستارة الرمزية، يجلس أمامها بابو.)

بابو–

حلم وحقيقة في ليلة صيف طويلة،

واقع الحياة حقيقة وحلم.

في الأقاصي، ثور يبكي في حلبة المصارعة،

بينما لاكايارا تحلم بالنهر.

حلم وحقيقة لواقع مرير.

حقيقة لواقع في حقل عاشق.

في الأقاصي، ثور يدمي باكيا،

ولاكايارا تصرخ في وجه العاصفة.

حلم وحقيقة لقلب جريح.

مطارد، بين الثيران والرجال،

ولاكايارا تختار في نهاية الأمر سيدها.

تسطع نجمة سوء الطالع،

لأن واقع الموت والحياة

سينهض في ستارة الحلم.

(ترفع الستارة، نقش عليها نفس ديكور الفصل الأول، لاكايارادا، ترقد في سريرها نائمة، ينساب ضوء ليلي، كالحلم)

صوت بيدرو رولوبا– كايارادا!

صوت خوان دالوبيكا– كايارادا!

صوت لوكاس باروسو– كايارادا!

لاكايارادا(بصوت حالم)–

هذا أنت، يا حبي الشجاع، من يناديني؟

(يرن من بعيد نفير بوق مصارعة الثيران)

بابو–

كايارادا، ليخرج الثور.

الثور الصغير في حلبة المصارعة.

مائة عربة تطوق الساحة،

تتقاطع الرماح مشرعة.

تزينت الشرفات

حيث وقفت السيدات يضحكن.

بين ركن وآخر، تنطلق سلسلة

من الصرخات وأكاليل الأزاهير.

لوكاس باروسو، يتصدر،

كئيبا، مصارعة الثور الصغير

محدقا في ساعته اليدوية

إنها ساحة وادي راموس،

والثور حاضر في الحلبة!

لاكايارداً–

هذا أنت، يا حبي المتوقد، حبي لك.... سيقتلني؟

(بيدرو خوان، ولوكاس ومانويل، يجتازون الغرفة، بشكل متقاطع. يدور الرعاة الثلاثة حول أنفسهم، ويحملون المعاطف الحمر، بينما العمدة يلوح بمنديل أبيض.)

بيدرو – كايارداً!

خوان – كايارداً!

لوكاس – كايارداً!

مانويل – كايارداً!

(ثم يختفون)

بابو –

مصارعو الثيران الذين يتصارعون

هم أيضا كالقطيع،

رعاة بقر يجابهون الثور

بسبب غيرتهم وانتقامهم

خوان وبيدرو، كالبيادق.

مانويل سانجث، كالسيف.

صوت خوان– ثور! ثور!

صوت بيدرو– ثور! ثور!

بابو –

اركض وزمجر واقفز.

رولوبا سيزينه

وخوان داولبيكا سيوقفه،

كاياردا ومانويل سانجث

سيفترشان المعطف الأحمر.

صوت مانويل–

هنا أيها الثور القرنفلي،

كقرنفلة حمراء بهية!

لاكاياردا(يتردد صوتها كالصدى)– قرنفلة حمراء بهية.

بابو–

ما زال لم يتعرف

على صرخة من يناديه.

فاقد البصر في حظيرة الثيران(المكان حيث يتأهب الثور للمصارعة)

لا يبصر النور

وأصم لا يسمع التصفيق.

صوت مانويل–

هنا أيها الثور الشجاع!

هنا يا ثور داري!

لاكاياردا–

هنا يا ثور داري!

بابو–

ينبثق من الوسط، شعاع مباغت،

فينتزعه رسبلاندورس.

مراوغة ومخادعة

بخرقة قماش حمراء رثة.

شرائط ملونة تتلوى كدوائر مزهرة

على أنغام نقر الدفوف.

وفانوس، كأنه انكب على ركبتيه

فتوهج نوره كألعاب نارية

وشمس وادي راموس

تزينه بالمناديل والأغصان.

(يتناهى من بعيد صوت موسيقى وتصفيق)

لاكاياردا(تخلد لفراشها)

هل هذا أنت يا حبيبي، يا من ينزف حين غيابي؟

بابو–

لاكاياردا، لقد أفسد الحلم

حياتها.

انظري للأنوار، انظري للظلال

الحاضرة والماضية:

البعيدة، عن قرب،

والقريبة عن بعد.

انظري من بعيد إلى مصارعة ثيران

إلى ابن أحشائك،

وحبيبك بين الثيران،

في غرفة بيتك.

امرأة وحيدة بين رجال

وحيدون مع ثيران شجاعة.

بالأمس كنت راعية بقر مطاردة

تلاحقها بلا هوادة

المراعي والجبال.

إن دافعت عن نفسها بعنفوان

فسيهزمها عنفوانها.

صوت بيدرو – كاياردا!

صوت مانويل – كاياردا!

صوت لوكاس – كاياردا!

صوت خوان – كاياردا!

بابو –

حلمت أنها ذهبت للنهر

وسبحت في أمواجه.

(تزاح جدران الغرفة، فيظهر منظر ريفي منبسط جباله زرقاء، وأشجار حور، ونهر تحفه أشجار صفصاف، يشرق نور الصباح. تخرج لاكاياردا وهي ترتدي ملابس النوم، أمام سريرها الذي تعلوه قطعة خشب فوق مذبح تملؤه الأزاهير.

يبقى الأثاث وقوس المدخل كما هو، وتختفي بابه في نفس الوقت الذي تختفي به الجدران. تمضي لاكاياردا باتجاه النهر، حيث تبدأ الجياد بالمجيء فتنزع عنها سروجها لتستحم، يأتي خوان داولبيكا خلسة.)

خوان–

كلما بحثت عنك، أجدك عند النهر.

كلما حلمت بك، أراك في المياه.

هل أنت يا راعية البقر، زهرة نبتت على ضفاف النهر

وكبرت بين الأحراش والقصب؟

لاكاياردا–

هل تحبني يا خوان دالوبيكا،

هائم بي اليوم وغدا؟

ما الذي تبغيه تلك العيون

وتلك الخطوات التي تخطو خلسة؟

خوان–

ما أريده منك، أن لا أكون مجرد رنين

كلمات كتلك التي تفوه بها مزاجك

أريد أن لا تخرجي من هذه الغرفة الخضراء

وأن تفتحي الستائر لشجر الصفصاف النضر.

لاكاياردا–

وما أريده منك، أن لا تنسى

أن تفترش لي أشجار الثارثا(*أشجار شوكية زهورها بيض أو حمر ولها ثمار*)

بأذرعها الشوكية

وزهورها الحمر كالدم.

خوان–

لن أنسى يا كاياردا ، فأنا ثور أبيض

ورؤية جسدك الأسمر يثيرني،

لما تمسه أشواك الثارثا

تتحول إلى أزاهير زرق تفوح بعطر زهرة إكليل الجبل.

لاكاياردا–

حسنا، أتعلم يا خوان دالوبيغا،

بأنني أحبك ولا أحبك،

لكنني لا أعني ما أقوله.

خوان–

أعلم أنك لا تحبينني، لكنني أنا أطلبه منك،

كاياردا، اعطني هذا الشال الذي يطوق كتفيك.

حتى تأخذي شارتي البيضاء (*لكل ثور لون شرائط يميزه عن الآخر*)

مقابل أن تعطيني منديلك الأحمر،

يا راعية البقر.

لاكاياردا–

تعال خذه يا راعي البقر.

بابو(بينما ينتزعه خوان منها ليقبلها)–

لما خلعه عنها، أراد أيضا

أن يخلع نفسها.

لاكاياردا(تبعده عنها)–

امض فالثيران البيض

تجتثها الثيران السمر.

خوان–

لكن من سيبث في نفوسهم الخوف،

بالمنديل الأحمر؟

(تمضي لاكاياردا ، بينما يهم خوان بالخروج، يصادفه مانويل سانجث، وهو فرح يلوح بالمنديل، ثم يذهب بابو)

مانويل–

ما الذي جعل خوان دالوبيغا مبتهجا؟

خوان–

من أهواء تجول في خاطرك.

مانويل–

وما اسم هذه الحالة؟

خوان–

الهوى يخبرني أنها

لاكاياردا.

مانويل – وا أسفاه!

الذي أهواه

أنت أيضا تهواه.

خوان–

كيف لك أن تهواه

إذا كان الهوى يهواني

وسأصطحبه معي؟

مانويل–

إلى أين تأخذه؟

إن كانت لاكايادا هي الهوى

فالهواء يطير.

خوان–

(يلوح بالمنديل في وجهه)

هوى أشد من الهواء!

أحلق به بل أحلق عاليا!

أحمله في منديلها أملا.

(يرمقه مانويل جادا ثم ينصرف، وهو كذلك يمضي إلى الجانب الآخر، بلا توقف، تسود عتمة الليل، بوهجها وعواصفها.)

صوت لاكايادا–

إيه يا ثوري، ثوري الصغير!

صوت بيدرو رولوبا–

هنا يا ثور! هنا يا ثور!

لاكايادا–

(تدخل من الجانب الأيسر، وهي تغطي رأسها بزهور شجرة الثارثا، يضيؤها شعاع البرق)

من أرى ليلا؟

بيدرو(يدخل من المدخل الأيمن)- ومن أرى ليلا سواك؟

لاكاياردا- أيها الثور!

بيدرو- الثور هنا!

يبحث عنك تحت رعشة ضياء البرق والعواصف؟

لماذا يثبط رعبه أمل الرعاة؟

لاكاياردا-

سأذهب لأبحث عن رسبلاندورس

الثور الملون،

زهرة قرنفل انطفأ نظرها.

فقدته حينما كنت نائمة

بيدرو-

هل تبحثين عني يا راعية البقر

فأنا ثور عاشق.

لاكاياردا-

هنا يا ثور! هنا يا ثور!

بيدرو-

إيه يا ثور! إيه يا ثور!

لاكاياردا-

من أرى ليلا؟

بيدرو-

ومن أرى ليلا سواك؟

لاكاياردا– إيه يا ثور!

بيدرو– الثور هنا!

لاكاياردا– ثور عاشق؟

بيدرو–

وهائم أيضا في ليلة معتمة

بل أشد مصيبة

إنه يبحث عن ثور آبق.

لاكاياردا– ستجده؟

بيدرو–

جريح

بسببه قلبي

فتحول دمه إلى زهرة

لم أر مثيلتها أبدا.

لاكاياردا– أين؟

بيدرو–

تحت رداء صدرك يا راعية البقر

بيدرو– الثور هنا!

لاكاياردا–

إلى ماذا ترمي يا راعي البقر؟

لاكاياردا–

لو لم يكن أصفر اللون (*هو تشبيه مجازي لثور مميز*)

وهارب من اصطبل مصارعة الثيران (*الموجود في حلبة مصارعة الثيران*)

أنا أحبك ولا أحبك

أبحث عنك دوما

تسرقين مني مدبرة

ما لم أمنحك إياه.

هنا يا ثور! هنا يا ثور!

(ينتزع منها زهرة في رأسها ثم يحاول أن يقبلها)

لاكاياردا(تصده عنها)–

أيه منك يا ثور! أيه منك يا ثور!

بيدرو(ينحني لها لما يخرج)–

من سيرانا ليلا ؟

لاكاياردا(تصده أيضا)–

ومن يرى ليلا غيرك ؟

بيدرو(من بعيد)–

هه الثور!

لاكاياردا(تصده أيضا)–

هنا يا ثور!

(يصدح نفير بوق المصارعة طويلا، ينبعث ضياء وردي شفاف، ثم يدخل بابو)

صوت مانويل–

هنا يا ثور! هنا يا ثور!

بابو–

لقد رآه مانويل سانجث،

وتعرف عليه، فاغرورقت

حدقة عينيه بالبكاء.

لم يفهم الثور

ما الذي يستفزه عن بعد.

(تدخل لاكايارداوهي تسير كالمسرنمة)

لاكايارداـ

ما هذا البوق الذي أيقظني

وثبط روحي؟

ما هذا الصوت الذي أفزعني،

وأي ظل أنهكني؟

بابو(غير صوته، كأنه ثور)ـ

أنا رسبلاندورس، الابن

لماذا لا تداعبيني، اخبريني ؟

قبل أن تغرسي طرفي الرمح المزينين بالأعلام (*عادة ما تزين الرماح بأعلام ملونة*)

و بيدك تطعنينني بالرماح لكن بدلا من الموت

تزهر زهرتان تتضوعان حياة

لاكايارداـ

هل تقوى ، يا حبي الجامح،

الذي ينزف عشقا تعيسا

أن تفتح بجسدك

جروح جسدي؟

مانويل(يجتاز الغرفة ، كمن يرفرف بالعلم)–

ثور حظي المنحوس!

رعشة بسالتي!

هنا يا ثور!

(ثم يخرج)

بابو–

رغم أنه يرفع ساعديه بثبات

لكنه يرتجف.

لاكاياردا–

إلى الخلف، مانويل سانجث، اخرج!

لن تهاجم، رسبلاندورس!

خوان دالوبيغا، لا تتركه!

رولوبا، لا تسمح له!

أستحلفك بحب الثيران،

بحبك، يا لوكاس، دعه يعيش!

لا تدع تلك الرماح

تمهد لبداية الاحتضار.

صوت مانويل– أيه يا ثور!

بابو–

شعلتان تتأججان

تتأرجحان عاليا بيديه.

نطفة نطفة، يتناهى صوت

دعس حذاء على الرمال.

تتناثر ألسنة اللهيب،

ثم تتحد، لتنتظم صفا.

مانويل سانجث.....

صوت مانويل- هنا يا ثور!

بابو-

معا نتركها تشتعل.

وادي راموس يبعث

نجوما وعصافير

(يتناهى صوت تصفيق وموسيقى من بعيد)

لاكاياردا(بألم، كأنها انغرست بها)-

كنت قادرا يا مانويل سانجث.

أن تغرس بداخلي النبال،

فيتناثر الدم

الذي تحبه على عينيك.

(تجثو على ركبتيها أمام الثور)

يا ثور النائبات اغرقني

في شموعك المتقدة.

انتزع قلبي

خارج قميصي.

سيقتلون ابنك

ومن أحبه هو الذي سيقتله.

تعال مع لاكاياردا

لنجري في حلبة المصارعة

لكن، أبوك قد مات،

وأنا أم جريحة

شقية بسبب حماس متهور

بلا بسالة ولا شجاعة.

(يتوجه ضياء أخضر اللون إلى الوردة، بينما لاكاياردا تزحف على ركبتيها كمن يبحث عن شيء على الأرض)

بابو(بينما يتغير الضياء)–

تغير نور الحلم

كحلم ولّى.

تحلق وردة حزينة بعيدا

عن حلبة المصارعة إلى

المروج البهية، بلونها الأخضر الزاهي

هناك، ثيران طليقة،

وثورك يا كاياردا

بين الرجال الشجعان

يعتدي عليه الحب،

بدون أن يعرف أي وهج

سيقتلع غصنه:

هل هو العمدة القادم

أم راعي البقر الذي يحرسه.

(يذهب بابو، يدخل لوكاس باروسو)

لوكاس– تتبعين خطواتي بين الأعشاب...

لاكاياردا– كنت أبحث...

لوكاس– تميزينني بين الثيران

تعلمين أن خطواتي أشد قوة

وأكثر عمقا من خطواتك...

لاكاياردا– لم تر تلك الجبال

عمدة بهذا الغرور.

يتقصى خطوات أخرى...

لوكاس–

لعينيك

هل يتجرأ الحقل لأن يطمسها أكثر من خطواتي؟

لاكاياردا–

متواضعة، وطرية ومطيعة هي الأرض

للثيران وللرجال يا لوكاس.

لكن ما أبحث عنه....

لوكاس–

آثار الأقدام تعلو ظهري كحديد متوهج

لاكاياردا–

لمن تعود؟

أعرف فقط التي تخصني

كل أثر يطبع سره.

أثر يخبرني عن شكل الزهرة،

وآخر عن صفير الناي،

وآخر عن

ينبوع ماء يخفي

بوجهه قطعة مرآة.

إنها دروب حبي.... لا يقوى أحد

على رؤيتها يا لوكاس.

لوكاس–

كثيرة هي الآثار التي تلطخ دربك.

كلها تفضي إليك، هل تريدين معرفة أسمائها؟

فالعمدة، كما الثيران،

يجيد التعرف على رعاة البقر وعيناه مغمضتان.

بل حتى يقهرهم

فيلدغوا التراب من على طرف الحربة.

لاكاياردا–

لن أعض أبدا ما أحلم به.

لوكاس–

ليس بطرف حاد، بل بيدي،

بها وحدها وبالأسنان....

لاكاياردا– لوكاس!

لوكاس–

سأصمت خوان دالوبيغا، وأقصي رولوبا

وأصرخ في مانويل سانجث.

لاكاياردا(تضحك بقوة)–

مانويل سانجث! هيا، انظر لرفساته،

لعل بقايا ذلك الرعب ستؤلمك.

لم أجد فيهم رجلاً أبحث عنه

أريده لم يبك في المهد، ولم يبك في الاسطبل،

أنت تعلم ذلك جيدا....

لوكاس–

إيه يا كاياردا!

لم يعد الدم يغفو في شراييني.

لاكاياردا–

إنه الثور، ثوري الصغير...

لوكاس–

احمليني

إلى دربه حيث يرعى!

لاكاياردا–

سأحملك إلى مياه أشجار الحور،

إلى أعشاب عطرية لترطبك

تحت ظلاها، تختبئ القيلولة.

لوكاس–

هل ستحبينني هناك أكثر من رسبلاندورس...

هناك ياكاياردا، لنذهب هناك...

لاكاياردا (بنعومة)–

لوكاس باروسو...

ووعدك؟ هل نسيته؟

لوكاس–

يمكنك أن تريه الآن على جدار غرفتك،

أسود اللون فظيع، قرناه مفتوحان،

يشع كقمر ينبثق

من ثنايا نهر ينساب هادئا.

(يمضيان وقد شبكا أذرعهما، يسيران ببطء)

لاكاياردا–

سيجز الغضب الذي ينبثق

من جبهتك رقبتك،

لعله يعاديك....

لوكاس–

لا أحد يستطيع أن يغلبني.

فأنا الثور الأسود.

لاكاياردا– وأنا الوحش

لوكاس–

خائنة

بهذا المشط الذي شبكت به شعرك،

والذي يلهبك غضبا، لن أعانق شعرك

(تنتزعه من شعرها، وتقدمه له)

لاكاياردا–

إنه لك يا عمدة، فنسيم الأحراج الرقيق

سيمشط شعري.

(يختفيان، ويتجاوزان مانويل سانجث وبيدرو رولوبا، الذي ينتشي فرحا حينما تنزع لاكاياردا الزهرة البيضاء. يظهر بابو تحت شجرة السنديان)

مانويل–

من أعطاك زهرة المنثور البيضاء؟

بيدرو–

التي رفضتني بكلمة لا

أجابتني بنعم

مانويل–

أنا الذي أحبها

وهي لي.

بيدرو–

إن هي منحتني إياه،

لم تكون لك؟

مانويل–

بماذا وعدتك؟

بيدرو–

إنه ما أحمله هنا

في زهرة المنثور البيضاء

من شجرة المنثور البيضاء.

(يمضي بيدرو)

بابو(يترك شجرة السنديان ويعبر مع مانويل)

اغرقوا مانويل سانجث

في بئر الغيرة.

حيث الشك فيه معتم،

والريبة بلا حلم.

فكماشات رعاة البقر

صماء مزدوجة،

بعد ذلك، لكمة لوكاس باروسو

... وبعدها...

الذي رأيتموه جميعكم

وستواصلون رؤيته.

(يذهب بعيدا)

مانويل-(يجلس تحت شجرة السنديان)-

ثور أبيض، ثور أسود.

لكن من الذي سيغرز

قرن الموت في الصدر؟

ثور أسود، ثور أبيض.

لكن، من الذي سيدفنني بطعنة قرن الموت؟

(تدخل لاكايارا ترتدي فستانا أحمر)

لاكايارا(من بعيد)-

من راعي البقر؟

مانويل-

من ينطق باسمي

لربما الصوت نفسه

سيشحذ منجل

قرنيه السمراوين بظلي.

لاكايارا-

ظلك؟ إن تجلّى

سيمحقه الثور الهائج، فبقلبه

يشحذ الحجارة،

تبغي حبه الجامح

مبتهجا،

وترنو لأن تحتضن تلك المحبة

الوديعة بخطورتها.

مانويل–

وذلك الثور الذي تجاوب لحبك ما شكله؟

وما لونه فالذي يرعب

أحدا ما لما لا يؤذيه؟

لاكاياردا–

أي لون؟

مانويل–

وإن كان هو أملي...

لاكايارا–

خمن اللغز.

مانويل–

لن أقوى على حل لغزه يا راعية البقر.

لاكاياردا–

يجب أن يكون مكسواً بالثلج كمد البحر،

أو كبقعة بيضاء، في بحر أسود

ماؤه شحيح كياسمين غائم؟

أو طين موحل كبركة فحم تم تبييضها،

أو خصلة حمراء كالخوخ

وشقراء كالقمر،

هل تراه خلاسي الشكل، كحوض سمك،

وحلم أسود يحتضر،

أو كإعصار قاتم، كستنائي اللون،

أو كملاح مرقط بالأبيض والأسود؟

كستنائي اللون كما زهرة قرفة مطحونة،

أو مبقع بألوان شتى، كأثر

طيارة ورقية لونت بثلاثة ألوان؟

أو أصيل كجبهة شمس رحبة،

أم أنه قاس وشديد

كمطر رقيق برتقالي اللون؟

أو تظنه حلاوة شقراء

وجلده كتفاحة تستعر،

أو أرقط كمأدبة طعام

زخرفت كخلية نحل؟

أم أنه جبل أصفر اللون

تعتليه قشطة لبنية،

أو رغوة صابون، أو ضباب شفاف،

أسود الشعر، كقسوة النفق؟

أم أنه مرقع بآثار غيوم متناثرة؟

أو رقبته تطوقها قلادة،

خرزها كما النجوم؟

هل تتكهن بلون

هذا الثور العاشق؟

مانويل– واحد مفقود.

لاكاياردا– المحب؟

مانويل– هو يجب أن يكون؟

لاكاياردا– الملون.

مانويل– وهل هناك علامات أكثر؟

لاكاياردا–

له عرف أحمر اللون وتعلو جبهته

غرة بيضاء كالضياء

قرناه خضراوا اللون ، وعيناه بنيتا اللون.

ثورا مانويل– ما اسمه؟

لاكاياردا–

بين الأزاهير يسمى القرنفل الأحمر.

وفي قلبي، هو مانويل

وفي حلمي هو رسبلاندورس.

مانويل–

اخبريني يا كاياردا

هل هذا الثور يحبني أنا فقط؟

لاكاياردا–

حتى لو أعطيت زهرة المنثور البيضاء

لثور مرقط بالأصفر.

مانويل–

وهل سيقبل في أن تحمله نزوته حيثما تشاء؟

لاكاياردا–

حتى لو كان ثورا مرقطا بلون الثلج

يسرق منه منديله الأحمر.

مانويل–

ما الذي يثبت لي

بأنه سيرى في داخلي حبه الخالص؟

لاكاياردا(تنتزع من صدرها زهرة قرنفل حمراء)–

هذه القرنفلة تجسد،

زهرة حبي لك.

مانويل–

وداعا ياكاياردا. ولا تنس

بأنني مفضلك.

لاكاياردا–

مانويل سانجث، لن أنسى

هذه تحمل ما تطلبه مني.

(تعطيه زهرة القرنفل، يختفي مانويل سانجث، تمكث لاكايارداا ساكنة، في وسط المشهد، يظهر خلفها بابو)

لاكايارداا–

منديل، زهرة المنثور،

مشط صغير، زهرة قرنفل،

خوان، بيدرو، لوكاس، مانويل

من سيحمل قرنفلتي؟

خوان داولبيكا، ثور أبيض.

بيدرو رولوبا، ثور أصفر.

مانويل سانجث، ثور ملون.

لوكاس باروسو، كستنائي اللون.

من هو الثور الملون؟

خوان، بيدرو، لوكاس، مانويل.

منديل، زهرة منثور،

مشط صغير، زهرة قرنفل

من سيحمل قرنفلتي؟

صوت خوان– كاياردا!

صوت بيدرو– كاياردا!

صوت لوكاس– كاياردا!

صوت مانويل– كاياردا!

بابو–

الآن تصعد الثيران من المنحدرات

من القصب، ثيران شجاعة،

واحد، اثنان ، ثلاثة، أربعة.

عابثون بلا ثور يقودهم.

أصوات الأربعة–

كاياردا!

(يدخل خوان أولا ثم يليه بيدرو ثم لوكاس متباهين، كل يضع على كتفه شرائط المصارعة الملونة)

بابو–

وصلوا الآن! الأول أبيض

الثاني أصفر، والثالث أسود.

(يدخل مانويل أيضا وعلى كتفه شرائط المصارعة)

مانويل– كاياردا!

بابو–

على بابك، الثور الرابع،

ببدلته المسترسلة، وقرنيه الخضراوين بدا رشيقا وملونا.

(يقف كل واحد منهم في ركن)

يقفون، ينظرون، ينتظرون تبدو عليهم أمارات التعب.

ها هي راعية البقر مع ثيرانها الأربعة.

خوان(يتقدم)–

منديلك الأحمر الذي أعطاك إياه خوان دالوبيغا.

يعبق عشقا أريد أن تعيده لي.

لاكايارد(تضعه على كتفه)-

لما تحلق النجوم من كتفي،

سيفوح منديلي الأحمر عشقا.

(يرجع خوان إلى ركنه)

بيدرو-

لديك زهرة المنثور البيضاء التي اقتطفتها من شعرك.

أطلب من حبك المتألق أن يعيدها لي.

لاكايارد(تضعها في شعرها)-

لما تغفو العصافير في شعري،

ستتفتح عشقا بين يديك.

(بيدرو ينسحب إلى ركنه)

لوكاس(يتقدم)-

سأضع روحي في مشطك،

امنحيني معه حنانا أبديا.

لاكايارد(تمسك به)-

لما تنمو إبرتان في جبهتي،

ستمشطها خيوط حبي بمشطك.

(ينسحب لوكاس إلى ركنه)

مانويل(يتقدم)-

قرنفلك يتصدر نهدك مسرورا.

امنحيه لدمي الملون المبتهج.

لاكاياردا(تعطيه إياه)–

هي لك يا راعي البقر، سيدة الأزاهير،

عندما تعشق أزاهير.

(يتراجع مانويل إلى ركنه)

خوان– امنحيني حبك.

لاكاياردا– لا يا راعي البقر... لا.

بيدرو– امنحيني حبك.

لاكاياردا– لا يا راعي البقر... لا.

لوكاس– امنحيني حبك.

لاكاياردا– لا يا عمدة...لا.

مانويل – هل ستمنحيني إياه؟

لاكاياردا– نعم يا راعي البقر...نعم.

(تقدم له زهرة قرنفل)

خذ هذه القرنفلة

يتوجها اللهيب،

جذوة قرنفل الثيران،

الزهرة التي تغرز مهمازها برعاة البقر والرعاة،

وتجعل العمدة مدلهما ساهرا متأرّقا.

أحمر متوهج يشع من رسبلاندورس

يؤججه حلم بنفس اللون سهدا؟

ليطعن بالأخضر(*تقصد قرنيه*)، مهمازا مزعجا،

يقتل مصارعي الثيران العميان.

زهرته، زهرتي، زهرتك، أقدمها لك.

ثلاثة ألسنة لهب في نار واحدة:

الثور، لاكاياردا، الرجل القوي.

فالقرنفلة العاشقة لهيبها دائم،

في دم الثور الملون

هي الزهرة التي تسعى لأن تمنحه الموت.

(راعيا البقر والعمدة يقتربون مهددين)

خوان– زهرتك!

بيدرو– زهرتك!

لوكاس_ زهرتك!

لاكاياردا– زهرتي!

لوكاس– كاياردا!

بيدرو– أنت زهرة المنثور

خوان– منديلك.

لوكاس– وأنا، مشطك،

الذي وعدتني به عند حافة المياه.

وشعرك الأسود يتناثر منسدلا على كتفيك

و شفتاك تهمسان بالكلمات.

لاكاياردا–

أيها العمدة هنالك كلمات آبقة

كما الثيران الطليقة في المروج

وأمشاط لا تمشط سوى الهواء

ومناديل ما هي إلا سحابة صيف

وزهور منثورة ذبلت جراء الأمطار

وقطعان رعاة بقر بلا هدى.

لوكاس–

اصمتي، يا ظل ربوة ساخنة،

يا بغي الحقول الكحلاء.

لا توجد مناديل، ولا أمشاط ولا زهرة منثور.

مجرد ثلاثة رجال سخرت منهم.

لاكاياردا–

ثلاثة رجال يا لوكاس! لكن هناك واحدا فقط.

الأقوى، والأكثر شبابا، والأشد شجاعة.

الذي حمل سيدة القرنفل

الزهرة الحمراء للثور الملون.

(تقترب منهم، بينما يتدافعون فيما بينهم)

خوان– إنها لي.

بيدرو– إنها لي.

لوكاس– إنها لي وحدي.

ومن أجلها سأمضي.

خوان وبيدرو– من أجلها أيضا نذهب.

مانويل–

ارجعوا للوراء يا رعاة البقر! قف يا عمدة،

رغم أن ما قلته هي الحقيقة

ولتنتزع هذه القرنفلة يجب عليك

أن تجتثها بقبضة يدك!

لوكاس–

اليد، من جذرها، حتى اللسان!

خوان– مانويل سانجث!

بيدرو– مانويل!

لاكاياردا–

إلى الوراء أيها الأشرار!

أبناء الذئاب والأبقار العمياء!

عوسج وشوك جبلي!

ثيران عابثة ديوث الريح!

شجعان الزريبة، سجناء الجبل

ثمة سكاكين تصيب الهدف بدقة

بدلا من قرن مروع نافذ!

(تفتح سكينا ذا حدين)

لوكاس–

بلا سكاكين ولا حجارة ولا عصي!

لقد أنساك غضبك بأن غضبي

يقطع أحسن شجرة بلا منجل.

ويهلك أجدى ثور بلا رمح

ويجعل من القرنفلة جرجيرا.

لاكاياردا–

ما فقدته بسببك سأعرف كيف أفقده

مع مانويل سانجث ومعه سأبكيه.

مانويل– اصرخي به الآن.

لاكاياردا– عيني تعرفه.

لوكاس–

بل ستعرفه الحقول القصية

حينما الخوار ينادي رسبلاندورس

ولن تسمعي الثور الملون،

حين تصحين فجرا

لن تجدي حلمك في الإسطبل،

وحين تنظرين إلى البرسيم ستجدينه

هادئا بلا شفاه متوردة.

لاكاياردا(تسحب سكينها)–

سأحملها ولو منغرزة في أحشائي،

لتتغذى بنهم

من كراهية عمدة

وبضع رعاة بقر مخدوعين به.

لوكاس– اذهبي...اذهبي!

خوان– اذهبي!

لوكاس–

اذهبي!

حيث الرياح تتجاهل آثاركم.

لاكاياردا–

لكن من قلب مانويل سانجث.

مانويل–

لكن مع كاياردا يد بيد.

(يمضيان متعانقين من خصريهما، يتوارى عن الأنظار كل من العمدة ورعاة البقر)

بابو–

هكذا اندفع معتما

ثور الغيرة،

بعد أن حفر في الدم

الأعمى لرعاة البقر

والعمدة، ظلاً

لفكرة راسخة:

الانتقام، ليعيش

بعينين مفتوحتين.

مذ ذاك، أمست الجبهات سوداً

جبهات منكسرة

ولسان بلا كلل، لا يحركه سوى الصمت:

فالذي جعله يتغير قد مضى،

سمّم صدره.

فتجولت عيني لوكاس،

مشوشة،

بين عيون الثيران،

بلا حلم.

(تنغلق جدران الغرفة ببطء)

بينما تلك الجبال

ومروج المواشي

استبدلت لاكاياردا

ومانويل سانجث،

بعيدا عن تلك الجدران الأربعة

الصامتة الخاوية.

رغم أنهما متحابان،

ويجهشان بالبكاء خفية.

آه! يا إلهي بلا رسبلاندورس،

ستكون ريح الروض وحيدة،

والأنهار والدروب وحيدة!

-كاياردا، كيف كانت؟

-كزهرة قرنفل نارية.

-زهرة قرنفل حتى الظل

لا يقوى على أن يقهرها.

لكن ظلا لئيما

كان يترقبها دوما،

ذات يوم جلبه معه

لوكاس باروسو، ثم....

(يصدح نفير بوق المصارعة الثالث، ويضاء المشهد بنور أحمر قاني)

إنه نفير البوق

يصدح موتا.

(من الباب الكبير تدخل لاكاياردا مذعورة، تحمل البدلة الأولى التي حملتها في الفصل الأول. تغلق الباب خلفها تلقائيا)

لاكاياردا(تصرخ)-

لا، لا، لا!

لمن نفير البوق هذا؟

ليتوقف عن النفير،

كيلا يذعرنا بصوته!

ليتني أنا التي تموت، ليتني أنا التي تموت!

بابو(كما الصدى)-

لا، لا، لا.

لاكاياردا–

أليس هناك صرخة تصده عني!

أي صيحة مظلمة تحرمني منه؟

بابو–

صرخة لا سواء كانت من موت أو من حرير

ستضع نهاية للمصارعة.

لاكاياردا–

لا، لا، لا!

ليتني أنا التي تموت، ليتني أنا التي تموت!

بابو–

السيف بيد

وباليد الأخرى قبعة.

مانويل سانجث يجتاز

الدائرة الرملية (*حلبة المصارعة*)، مطمئنا هادئا،

لوكاس باروسو يحسب

خطواته بصمت.

ليحتسي نخب دم

الثور الذي سيموت.

صوت مانويل–

لوكاس باروسو!

لاكاياردا–

من ذكر في أحلامي

اسم السوء هذا؟

بابو–

كاياردا، تفوه به رجل

سيموت مع ابنك.

صوت مانويل–

أنا هنا، يا لوكاس باروسو.

صوت لوكاس–

وأنا يا مانويل، لكي أراك

كيف تغرز الموت في

الثور الذي تعشقه.

لاكاياردا–

لا، لا، لا.

بابو–

لقد فات الأوان.

لاكاياردا–

ليتني أنا التي تموت!

صوت مانويل–

أولا سأقبض روحك

وبنفس السيف

الذي قتلتك به، سأدفنك

والسيف فيك منغرز.

لاكاياردا–

يا ليت لوكاس هو من يموت، هو من يموت،

وليس مانويل ولا الثور،

ليتهم بعد هذا البكاء الطويل يعودون إلى راعيتهم!

لتحل لعنتي على من سلبهم مني.

بابو–

لا، لا، لا!

لقد فات الأوان.

لاكاياردا–

ليتني أنا التي تموت!– ليتني....

صوت مانويل–

ليخرج الناس! هنا الثور!

(صوت من بعيد. يتصاعد الضياء الأحمر)

بابو–

ينسحب خوان دالوبيغا،

ويغادر بيدرو رولوبا

مانويل سانجث، يحمل عصا القماش الأحمر (*لاستفزاز الثور في المصارعة*)

ويقف مستقيما أمام رسبلاندورس،

يبسطه ويثيره عن قرب.

ثلاثة ، يمتطون الجياد، ساعدوه عن علو(*عند بدء المصارعة ثلاثة فرسان يتقدمون لطعن الثور في ظهره بالرماح*)

والرابع باليد اليسرى،

وآخر متجولا

يجثو على الأرض.

فيبعث وادي راموس

حمائم ومنشورات زينة.

(تصفيق)

صوت مانويل–

أيها الثور، لقد أزف الوقت.

ثور طالع نجمتي التعيس.

لاكاياردا(متأسفة)–

ثور طالع نجمتي التعيس.

بابو–

مانويل سانجث يستعرض نفسه.

بسيفه المستقيم، رسبلاندورس

يبدو زهرة دامية

أكثر من ثور

تحت وميض سيفه الفضي اللون

يلاحقه حازما.

يسود سكون مميت

في مساء حزين فوق الرمال.

(تركع لاكاياردا على ركبتيها أمام رأس الثور، وهي تصلي، كقطرة منسابة، يليها، ضياء أحمر يتصاعد ساطعا حتى يبلغ العمق المظلل، بعد لحظة تعود لكي ترقد في السرير)

لاكاياردا–

واحد...واحد...واحد

لم يفت الأوان.

لم يفت الأوان.

ثلاث،

أربع ثوان.

أنت تستطيع.

أنت تستطيع.

واحد

آخر

واحد.

قرنفلة،

ثوري،

حبيبي،

زهرة قرنفل.

لم يمت أحد.

ما يخصني.

ما يخصني.

ما يخصني.

لم يفت الأوان.

لم يفت الأوان.

واحد وآخر.

دم..دم..دم.

أنت تستطيع.

لم يفت الأوان.

أحبائي...أحبائي.

واحد وآخر.

لا أحد...لا أحد.

(تسمع صرخة ممزقة لمانويل سانجث وخوار ثور طويل، تثار موجة وشوشة مبهمة، لكن في النهاية تتضح أصوات تنادي)

أصوات بعيدة-

كاياردا... كاياردا... كاياردا... كاياردا...!

لاكاياردا(تستيقظ تحت ضياء نور فجر خافت يتسلل إلى الغرفة)-

أي رياح موت، أي صرخات تناديني؟

أي خوار جاءني به بزوغ الفجر؟

أصوات قريبة(بغموض)-

كاياردا....كاياردا...!

لاكاياردا-

كاياردا....كاياردا...!

أم تناديني أصداء الغائبين؟

أصوات–(تخبط على الباب)

كاياردا... كاياردا...!

لاكاياردا–

حلمت حلما بأن سوء الطالع

يخبط أبواب هذه الدار؟

صوت لوكاس–

افتحي يا كاياردا!

صوت خوان وبيدرو–

كاياردا، افتحي الباب!

لاكاياردا–

لمن أفتح الأبواب التي لا تفضي لشيء؟

أصوات– استيقظي!

أصوات أخرى–إنه الفجر!

لاكاياردا– إنه صحوة الدم.

بابو–

أنت لا تحلمين، افتحي، افتحي.

(لاكاياردا تفتح: إنها تسبح بالضياء الذي ملأ كل فضاء الباب، عربة مقلوبة، جانباها نحو الأعلى، في داخلها صليب، وجسد مانويل الدامي، بلا حراك، لوكاس وخوان، وبيدرو والفتيان الاثنان، وفتيان الحقل الآخرون يحنون رأسه وينزعون عنه القبعة، يسود صمت يقطعه لوكاس)

لوكاس– كاياردا....

لاكاياردا–

لا! من يتكلم؟ ليصمت الجميع.

(يسود صمت)

لوكاس–

جلبت لك مانويل سانجث يا كاياردا.

لاكاياردا(تغطي عينيها وأذنيها)–

لا...لا...

لوكاس–

وشق صدره كعلامة الصليب

بقرن الثور الذي ربيتيه.

لاكاياردا–

لوكاس، لوكاس، يا راعي البقر...!

لوكاس– هنا اكتملت لعنتك...

لاكاياردا–

لعنتي؟ اتركني!

لعنتي هي أن أراك هنا مرة ثانية.

عذابي هو أن التقي بكم وأسمعكم.

لوكاس–

أنظري إليه وهو حاف بلا صندل،

بلا قبعة، ورأسه مكشوف.

لاكاياردا– عسى أن يحترق صوتك!

لوكاس–

انظري إلى العربة،

ياكايارداا، إنها كما تمنيت:

ثيران أنهكها التعب،

على بابك وهراوات مهشمة

سئمت من التدحرج والدوران ليلا

بين ظلمات الوديان وغابات الصنوبر.

لاكايارداا–

والثور؟ ورسبلاندورس؟ في أي حقل

في أي بستان مثمر دفنته؟

خوان– الثور؟

بيدرو– الثور؟

الفتى 1– الثور؟

الفتى 2– الثور؟

لوكاس– الثور؟

لاكايارداا– نعم الثور!

لوكاس–

كايارداا من الذي يدري!

إن أصاب الموت مصارع الثيران فقط

وفتح للثور أبواب الطريق.

لاكايارداا–

ماذا تقول يا عمدة؟

لوكاس–

تاه في الجبال،

اجتاز أمكنة وعرة

أحمر اللون عطشان وبين قرنيه يلتمع

قلب مانويل سانجث.

لاكاياردا–

أريده حيا، أريد الثور حيا!

لوكاس– أنا سأذهب اليه.

لاكاياردا(تشير إلى مانويل)–

نعم أذهب، هكذا سأطعنه.

هكذا سأتركه، يا لوكاس.

بابو–

ظل حزين

سيبعث صرخات بكاء وهموم أخرى.

لاكاياردا–

ستذهب لاكاياردا وحيدة. إيه من راعي البقر

الذي ما زال يتجرأ أن يناديه من بعيد!

من الذي يستطيع أن يذهب؟ أنت يا لوكاس، من الذي جرحه!

أنت الذي انتزعته من قلبي!

أنت يا عمدة، بيدك نفسها

تركت الموت يطأ عتبة بابي.

لا، لا! لا أحد! لن يأتي أبدا!

أنا وحيدة! أنا! لن يعبر أحد

ستضيق الأرض، وتنحصر

الغابات، والعواصف والوديان،

والكهوف، والأنهار العميقة

بسبب غضب امرأة تعلم

أن حبها وحلمها

لم يبق منهما إلا درب طويل من الدم.

تسدل الستارة بسرعة

الفصل الثالث

الشخصيات:

بابو

لوكاس

خوان دالوبيغا

بيدرو رولوبا

الفتى 1

الفتى 2

لاكاياردا

صوت 1،2

الشاب 1

الشاب 2

الشاب 3

رعاة وفتيان آخرون من القرية.

غابة صنوبر كثيفة، فتحة كهف مظلمة، تكاد أغصان الأشجار تخفيها، تظللها سماء.....، بين سفحي جبل، تفصلهما عن بعضهما فتحة ضيقة واضحة، يربط بينهما جسر صغير، من الناحية اليمنى، صخرة كبيرة، يتسلل نور الشمس، تحرك الريح الأغصان، يتناهى خوار ثور طوي، يظهر من بين الأشجار بابو متخفيا.

بابو–

إنه هو، من بين هشيم السماء

وحطام الجبال، وحيدا ينادي،

عطشان، من بين السيول

تنبثق رشقات ساطعة،

كرعشة الحمى لتدل على آثار مصيبة،

من أين تريده أن يمر،

ما هو أشد من الثور

جمرة جنون الثور.

فالأصداء تصعقه

والهواء يصمه

وكلما نضب دمه

تصاعد عويله وألمه.

ثور أطلق ظلال فكره،

ليمحق به لوعته،

فالغضب، والانتقام،

زهرة وأمل جريح

هائم مع الريح

أين هو إن كان بحضوره

تتصاعد أنفاسه،

أين هو إن كانت الغابة تهذي

بسبب براءته؟

أي رعب، أي عنف

أي عقاب أو يد هامدة،

أي غمامة، أي حظ معتم

تسامروا سوية

حتى أمسى ثور الحياة

ثورا للموت؟

إنه هنا، فخواره

يضيق بين جذوع الأشجار

فالظل الذي يترقبه

يجلب له مصيدة خفية

وا حسرتاه، وا أسفاه،

أي قانون يشرع

ضد ثور ليتقدمه،

خطوة بخطوة، حتى يتركه

بيد من يريد أن يسلمه

وعقدة الحبل في رقبته؟

(يسمعون خوارا متصاعدا عنيفا للثور، يحمل لوكاس عصا قصيرة، يظهر بين صخور المقطع الأول)

لوكاس–

إنه هو! إنه هو! ، إنها صرخته،

ثمة بريق دام

يحثني لأن أتعقبه

يترك في داخلي شعاعا مكتوبا.

إنه هو! تلهفي له بلا نهاية

سجين في يدي يحلم

كفاقد البصر بسبب حسرته

وإصرار سخرية من

رجل يعتلي قمم المجد

وثور يطوف المسالك الوعرة.

(يذهب، يظهر خوان أمام السماء)

خوان–

إنه هو! أين راعي البقر،

أين العمدة الكئيب،

أين غابة الصنوبر، أين النهر،

وأين مصبه،

والقمة، والشعاب،

وهطول الثلج، وارتفاع درجات الحرارة،

والقساوة الغاضبة

التي تعترض على اليد العمياء

الذي بها سيجلب خوان داولبيغا رسبلاندورس حيا؟

(ثم ينصرف، يظهر بيدرو من بين الأشجار)

بيدرو–

إنه هو! أي حجارة، أي أمر جلل،

أي راعي قطيع،

أي عناد، أي لجاجة

يريدون مني ألا أجيب؟

ليختبئ حيثما يشاء،

ليقفز في البحر، ليهرب مع صاعقة

لتمحُ

آثاره السماء،

سألاحقه حيثما ولى،

فالذي يطارد ثورا،

يبحث عنه حتى في النجوم.

(ينصرف، يدخل من الجانب الأول الفتى 1)

الفتى 1–

إنه هو! لا أحد بوسعه

أن يمنع فتى من أن يكون

وسيما شجاعا

فيمضي في إثر ثور هارب.

الفتى 2-

إنه هو! في هذه المصارعة

ما بين شعاب وأراض مستعصية،

ما بين قمم مسننة وصخور وعرة

لا يوجد ثور يتجرأ

أن يجرح يداً تحمله

الفتيان.

(ينصرفون، من بين أغصان الشجر التي تغطي فتحة الكهف، تخرج لاكاياردا، بمظهر متبلد شعث تهذي)

لاكاياردا-

هل هو أم أنا من أصدر خواراً

ضائعة مغمومة

هو الذي طُعن، وأنا أسبح بالدم

الذي سفكه؟

أهو دمك أم دمي؟ اخبرني

اصرخ بوجهي لمن تلك الدموع

السجينة في عيون تقبع في تلك الهاوية،

ستمزقك من داخلك

أم ستمزق عظامي حتى نخاعها.

أين أنت، فأنا لم أعد حاضرة؟

هل أنت حقيقة أم مجرد خوار

لحلم مفقود

اذهب خلفه بلا حلم؟

هل أنا من تلاحقك،

حنينا لهواجسي

أم أنا مجرد صوت سجين تحفظه

ثنايا أصدائه.

أم ظل شجيّ

لثور في عزلته؟

(تصرخ)

حبيبي!

(يتردد صدى) حبيبي

لقربك مني

أشعر أنك في داخلي،

أحس بأنك تهتز

كما زهرة قرنفل في يدي

الجأ لي يا حبيبي! تعال كالإنسان

مطيعا، تعال الآن ليهدأ

ذلك النحيب الذي يعيق

عني نور انقاذك.

ألا يجيب أحد لموتي؟

بيدرو(يدخل من الجهة اليمنى)- نعم يا رولوبا.

خوان(يدخل من الجهة اليسرى)-

وخوان اولبيغا.

(يتواجه كل من راعيي البقر متحدين بعضهما)

بيدرو(يدخل من الجهة اليمنى)- نعم يا رولوبا.

خوان(يدخل من الجهة اليسرى)- نعم يا خوان اولبيغا

خوان(لبيدرو)- أنت؟

بيدرو(لخوان)- أنت؟

لاكاياردا-

من؟

خوان- أنا

بيدرو- أنا

خوان- رجل ما.

بيدرو- ثمة رجل.

خوان- أنا لوحدي، يا اولبيغا.

بيدرو- رولوبا لوحده

خوان- عمّ تبحث؟

بيدرو- أنت تعرف ما الذي أبحث عنه؟

خوان- لا تتجاهلني.

بيدرو- تبحث عن الذي أنا أريده

خوان- أبحث عما تريده أنت

بيدرو(لكاياردا)- من أجلك .....

لاكاياردا(بصوت خافض)-

عمّ تتكلمان؟ من يعرفكما؟

ما الذي تبحثان عنه من أجلي؟ ماذا تريدان أن تقدما لي؟

ماذا رأيتم في الشعاب؟ ماذا سمعتم عند هدير الأمواج؟

لا أحد، لا أحد. لم يضع أحد في الغابات

ولم تنبعث صرخة من السماء، ولا حتى خوار

(تدفعهم بلطف)

هيا اذهبوا... اذهبوا....

خوان (سرا)- كاياردا...

بيدرو(الشيء نفسه)- كاياردا...

لاكاياردا (تصرخ)-

من الذي ينطق باسمي؟

(بصوت خفيض) هيا اذهبوا...

خوان- الثور....

بيدرو- الثور....

لاكاياردا(تصرخ)- من الذي ينطق باسمي؟

(بصوت خفيض)

لقد أخفى الموت قرنيه الجامدين ليشحذهما

ضد قمم التلال المسننة الحمراء الساخنة

كأن قطعان الماشية تمر من عند كتفي

فأشعر بدعستها تؤلم أحشائي.

خوان– لا تذهب في إثره يا رولوبا.

بيدرو– لا تذهب في إثره يا اولبيكا.

لاكاياردا– من هو؟ وأنتم، من أنتم؟

اصمتوا.... اصمتوا....

خوان(برفق)– يا راعية البقر....

بيدرو(برفق)– يا راعية البقر.....

لاكاياردا– اصمتوا...اصمتوا....

(تنسحب بشكل خفي إلى الوراء) أنا أعلم... أنا أعلم.... لا يوجد أحد.... دعوني أبتعد.

خوان– ويل لك إن لمسته!

بيدرو– ويل لك إن لمسته!

خوان– فقط هذه اليد، اليد التي ستسلمه لك

بيدرو– فهذه اليد لن تكون إلا يد لوكاس باروسو.

لاكاياردا–

(تعود وتصرخ بغتة)–

لا، لا، لا ! شلت تلك اليد....

عسى أن تهوي لما ترتفع ثم تهوي

في ماء النهر ضائعة.

خوان– هو يبحث عنه وعنك....

لاكاياردا(بصوت خفيض)–

لن يجدنا أبدا.

بيدرو– لماذا لا تمنعيه...

خوان– لكي لا يواصل مسعاه

بيدرو– كاياردا، أنا....

كاياردا– (بصوت خفيض)– اصمتوا!

خوان– كاياردا، أنا....

لاكاياردا(تصرخ)–

لا أحد! بل أياد دامية دبرت موته

اصمتوا... أرى ساحة العربات وفوق رمالها

طفل صغير ورجل يتواجهان.

وجهان عابسان، جامدان، قاسيان، في قبضتيهما

كفن راعي بقر من جليد،

عمدة ينظر للمصارعة ببرود

وقلبه خارج صدره.

اذهبوا ...اذهبوا... اذهبوا يا عميان... في ظلمات الغابة....

وابحثوا.... فلا يوجد أحد، لا أحد سواي ...

(أصوات–من الأعلى)– كاياردا!

خوان– لوكاس

بيدرو– لوكاس

اصوات– كاياردا!

بابو– لا تجيبي،

يدك ستبلغ الحنجرة التي تتبعينها

خوان(مهرولا)- عمدة سأمسك بالثور!

بيدرو(مهرولا)- لا هو ولا أنت، يا خوان دالوبيغا!

(ينصرف إلى الخلف)

بابو- اركضوا، اركضوا ، كأن فحيح الأفعى قد لدغكم!

لاكاياردا-

إيه يا درب الدم، يطارده حب أحمر،

كلما لاحقوك أراك طليقا حرا!

أنا أعلم أنني إذا بحثت عنك، فأن قلبك سيبحث عني،

مهما كانت خسارتك كبيرة، بدوني ستخسر أكثر.

(تبدو من الخلف، وديان تضج بالهمهمات، وأمزجة غامضة خفيفة، بينما الأصوات 1 و2 يتحاوران مع بابو)

الصوت 1- بابو، ما الذي تشعر به أغصان الأشجار؟

بابو- تشعر بما لا أتفوه به ولا تحس به لاكاياردا.

الصوت 2- بابو، ما الذي يبكي عيون الجدول؟

بابو- تبكي ما لم تبكِ عليه العينان بعد؟

الصوت 1- بابو، ما الذي يجعل صدى صرخات الجبال تتعالى؟

بابو- تصرخ ما لا يعرفه صدرها ولا لسانها.

(تسأل الأصوات أكثر كل مرة بإصرار)

الصوت 2- بابو، ما الذي يجعل الهواء يطلق صفيرا في غابات الصنوبر؟

بابو- تطلق صفارة ما لا تريده للدم أن يطلقه.

صوت 1 - بابو، ما الذي يسكت السماء؟

صوت 2 – ما الذي تحمله الغيوم الملبدة؟

صوت 1 – ما الذي تهمس به الثيران؟

صوت 2 – ما الذي يبلي الجياد غما؟

بابو (متضايقا)– اصمتوا!

صوت 1 – قل لنا!

صوت 2– اجبنا!

بابو– لا تتبعوني.

صوت 1 – اخبرنا بصوت عال.

بابو (بصوت يختنق حزنا)–

ما الذي يقوله عجوز، إن كان ما يقوله سيبكيه!

نعم... نعم... لربما... عسى....

ضياء ما.... وميض برق ما....

لكن لا.... فالقدر سيتحقق خطوة بخطوة.

(يمضي، يدخلان سوية الفتى 1 والفتى 2)

الفتى الأول–

من يخشى ثورا في الجبل؟

إن كنت أنت تقدر عليه

فأنا أيضا أقدر.

سواء شئت أم أبيت،

لا يوجد ثور يضعني في الصف الخلفي.

الفتى 2– جاؤوا عبر الجبال،

عبر الرياض،

ثيران سود موحلة ملونة،

والفتيان لا يخشون الثيران ولا العمدة!

الفتى 1-

ما الذي تمنحه للثور الأعمى المروض،

حينما تقهر بيديك قوته؟

الفتى 2 – تكمن في جراحه

ثلوج الجداول، وأغصان مزهرة.

ما الذي ستفعله مع ثور يصرّ على أن

يعود إلى راعية البقر التي ربته؟

الفتى 1 – سأحوم به

ثم أحمله إلى كاياردا رشيقا.

(يهرعان إلى الخلف ليذهبا، فتقطعهما لاكاياردا القادمة من تقاطع الأنهار)

لاكاياردا –

من الذي يبحث عني في غابة الصنوبر،

من الذي يتبع طريق عذابي بين الظلال؟

من يغدو جيئة وذهابا بأثر دم ليؤازرني؟

الفتى 1 –

أنا من نجمة لأخرى، أعود مشوشا....

الفتى 2 – مواساتي لك بلاء لي.

الفتى 1 – وأنا إن اتبعته....

الفتى 2 – من أجل هذا الثور سأنحب معك باكيا....

لاكاياردا– واصل متتبعا آثار خطواتي لوحدك،

أريد أيضا يد الفتيان.

الفتى 2 – بالتأكيد يدنا معك!

الفتى 1 – يد قوية أكثر شجاعة من الشجاعة ذاتها.

لاكاياردا–(للفتى 1)–

أيها الفتى الشجاع، فتى بعمر الورد،

لديك عيني رسبلاندورس،

تحلق وتنقلب

بكاء في إثر الثور المعاقب.

الفتى 2 – وداعا يا كاياردا الرائعة...

لاكاياردا– إلى حديقة الموت.

الفتى 1– حين تعودين مع الثور سأعود لرؤيتك.

لاكاياردا– ليل بلا نهار.

الفتى 2 –

وداعاً يا كاياردا الجميلة، يا شجاعة.

(ينسحبان إلى الخلف)

لاكاياردا –

جميلة.... هي حديقة الموت....

وكاياردا شجاعة....

وداعا.... يا ليلا بلا نهار،

بدون أن تراني أو تملكني!

تعال إلي، أريد أن أراك.

سأذهب إليك، ألا تراني

رغم وجعي

لا تظن أنني ظلال للحقد.

رسبلاندورس سأغفر لك.

اللعنة عليك، أيها العمدة !

بابو(يظهر، خلفها بشكل غامض)-

بابو- المغفرة؟

لاكاياردا- ما هذا الصوت الذي يزعجني؟

بابو- هو قتله، لكنه مازال يتنفس.

لاكاياردا- سألعن فقط اليد العاتية

التي نالت من الثور.

بابو-

كاياردا، بأي منطق تتحدثين

فتفضلين ثورا على رجل؟

لاكاياردا-

لأن النساء المقتدرات يؤثرنه بدلا من العار.

بابو- أريد ....

لاكاياردا- لكنه كان ثوراً ، ومن أجله أنا....

بابو- ما أنت عليه.

كاياردا– أرملة هائمة.

بابو– أمّ تلفعت بالظلمة.

لاكاياردا– أرملة ذات عزيمة حازمة.

بابو–

بل أمّ لحلم بلا حلم

أستيقظ في غمرة الجنون.

لاكاياردا–

أرملة صليب صلد

لم يعثر عليه أحد في طريقه.

والدة مصير تعسٍ

يهرول كالأعمى،

ممتزجا بدم بريء

دم قاتله.

(تتعالى نبرة صوتها)

أنت بيتي، أنت نهري،

أنت حقلي وأحراشي،

أنت طفل ستبقى حتى آخر العمر في قلبي.

إنه يوم الحب والهذيان،

يوم ألم وقهر أبدي،

من سيمنحك السكين التي تبحث عنها وأنت هارب؟

من سيمنحك حياة أكثر من حياتي؟

أصوات قريبة من لوكاس– أنا، أنا.

لاكاياردا– من؟

صوت لوكاس – لوكاس باروسو

(تصرخ لاكاياردا صرخة رعب، متفاجئة بأنها لا تجد أحداً)

لوكاس–

إيه! من يصرخ؟ أيجلب النسيم دوي هذا الصوت؟

من الذي تسأل، من؟ لتجيب مرعوبة على صوتي؟

بابو–

صوت واحد لا يريده العمدة،

يفضلها أن تمكث صامتة في الكهف، طوال اليوم.

لوكاس– كاياردا!

بابو– ابحث عنها، ابحث عنها.

لوكاس– يجب أن أجدك.

بابو–

فتش عنها في جذوع الأشجار .... وابحث عنها في الجذور...

في الشقوق .... وفي أخاديد الصخور المخفية...

انتزعها.... واجرحها.... قسمها....

احرق الأغصان.... لقد اقتربت.... اصرخ.

لوكاس–

كاياردا!

بابو– بصوت أعلى.

لوكاس– كاياردا!

بابو– انتبه.... انتظر...

يزأر صوت كاياردا–

صوت لعين! صوت لعين! لعين!

بابو– اصرخ مرة أخرى.

لوكاس– كاياردا.

لاكاياردا– ليمت، ليمت!

لوكاس– ابحث عنك، فأنت الملح

لاكاياردا– ستبقى أعمى.

لوكاس– سأدخل.

لاكاياردا–

مخالبي الوحشية ستنزع حياتك.

لوكاس– اسمعيني يا راعية البقر، اصغي إلي...

لاكاياردا(تخرج من فتحة الكهف بين الأغصان)–

اضرم النار في وكري

فأنا لم أعد كاياردا ولا راعية بقر،

بل أنا انتقام جريح.

لوكاس– سأجلب لك الثور.

لاكاياردا– كذاب!

آه منك يا عمدة، لو كنت تنطق بالحقيقة.

لوكاس– تعالي.

لاكاياردا(تقفز من بين الأغصان)-

لكي تخفي أظافرك وأسنانك.

أين رسبلاندورس؟ أنت فقط تتخوف وتتهرب،

يا عمدة، إن وجدته معي،

إن أومأت له تلك اليد الجبانة الباردة

لتناديه من بعيد،

لن يلجأ سوى لكاياردا.

أمقت هذا الخداع.

لوكاس- رافقيني لتريه.

لاكاياردا- أين هو؟

لوكاس(بنبرة ودية)- موجود حيث حاول العمدة الاحتفاظ به والدفاع عنه.

لاكاياردا- الاحتفاظ به؟

لوكاس- من أجلك أنت.

لاكاياردا-

أي كلب ينبح من قلبك؟

أي ذئب جامح، أي رمال حزينة،

وأي ريح عارمة صفراء بلا بصيرة،

تحثني، وتهيجني،

ضد صدر يدمي هاربا؟

ما الذي تريده مني؟

لوكاس-

حبك لرسبلاندورس.

جسدك من أجل الثور الملون

وحياتك من أجل حياته....

الثور مقابل أنفاسي كعاشق،

وجرحه المفتوح مقابل جرحي المفتوح.

لاكاياردا–

مصيبة تنفجر!

هلع يترقب مصيري على الدوام،

من أجل أن تحيا تدمرني

لتمحو ندمك وأثر الثور في طريقي،

لماذا ظلك يريد أن يغرقني حتى النهاية؟

لوكاس–

أغرقك، نعم، ياكاياردا، هذا ما أريده،

أريدك بين ذراعي بلا أنفاس،

وإن فارقت الحياة، لكنني في النهاية أمتلكك.

لاكاياردا–

بيدك قتلتني يا راعي بقر،

لأن بيدك فقط أجدني ميتة،

لماذا برفقتي يدك تبحث عن موت آخر؟

لوكاس–

أنت مقابل الثور! أنت! حانت الساعة.....

لاكاياردا–

ما كان ينقص مانويل ليدفنك

هي نبلة يغرزها بين عظامك، يا عمدة

ويقتلك.....

لوكاس(يحملها بقوة)–

لا! يجب أن أقبلك....

لاكاياردا(تقاومه)–

بفأس مروع وانتقام....

لوكاس– بل سأعض قلبك بقبلاتي.

لاكاياردا–

اتركني يا لوكاس باروسو، اتركني، اتركني!

(يسمع مرة أخرى خوار الثور)

لوكاس– أنت مقابل الثور.

لاكاياردا(تفلت منه)–

أصغ لخواره!

من جبل لآخر تتناهى لي شكواه،

لقد كذبت يا عمدة، الآن قد ضعت.

(تهرع للكهف، تتناهى ضوضاء من بعيد لناس تسير عبر الجبال تلاحق الثور وتطلق صرخات غير مفهومة وطويلة، ثور، ثور، ثور)

لوكاس–

أنا ضائع يا كاياردا

لكنني سأقبض على الثور بيدي.

أقسم لك!

(يذهب مهرولا، ويطلق قهقهة غريبة ، وهو يمسك بفأس، بينما تختفي لاكايادا)

لاكايادا–

اهرب أيها الجبان الوقح،

يا نسرا غامقا، ودودة شاحبة،

يا ذئبا وروثا موحلا كمستنقع!

لتضغْ في الريح،

بين ثنايا أسنانها

وحنجرتها الحارقة،

التي تطلق صفيرا كما الريح

خوارها دافئ

ترافقها فأس مفزعة وانتقام....

(يطل الفتى 1 من الصخرة في الجانب الأول)

الفتى الأول(يصرخ)–

وصل فتيان وادي راموس!

وادي راموس أرسل فتيانه.

لاكايادا–

يبحثون عنه متعثرين كالعميان

لكنه يستجيب فقط لكاياردا؟

(يدخل بيدرو رولوبا)–

ما هذه الآلة الحادة التي تصرخ بين بيديك؟

لاكاياردا– أريد روح لوكاس باروسو!

خوان–

لدي ما يكفي لأمسك بها بل وما يفيض عن حاجتي.

بيدرو–

لدي ما يكفي لأقبض عليها بل وما يفيض عن حاجتي.

(يدخل الفتى 1 و2 برفقة بعض الرعاة)

لاكاياردا–

هيا إلى العمدة، يا رعاة الجبال!

أصوات متعددة– هيا إلى العمدة

لاكاياردا

انطلقوا لصيد الذئب!

هيا يا فتيان و يا رعاة اتبعوني!

الجميع– كلنا معك!

لاكاياردا–

وكاياردا مع الجميع!

(يذهبون، يشتد الصخب، يقترب ويبتعد، كالموجة، ما بين عواء كلاب ورنين قرون، بينما بابو والفتى 1 يقولون ما يلي)

بابو–

ثور فوق، ثور تحت،

كجذع من الجذوع

ملاحق وممزق

الفتى 1- (يصرخ من بين الأحراش، من الداخل)- عمدة ، عمدة، إنه لوكاس.

بابو-

بالرغم من أنه يمتطي جوادا

لكن فكرة إعدامه باليد

قد سادت.

الفتى 1-

أيها الثور! اخرج، اخرج!

اجلبه! اعطه! ليبتعد! ليمر!

بابو-

روح تتألم، ينادي متألما،

من بين حواجز مائية وأحراش.

الفتى 1-

اركض! ادفع! اقفز! اركض!

بابو-

يعضونه، ينبحون عليه،

يا إلهي، هي لن تصل!

هل ستصل؟ هل وصلت؟

جنون أعمى يحلم

بأن لا أحد يمكن أن يمسه.

(ترتفع الضوضاء أكثر)

الفتى 1-

إيه، إيه، إيه! آه، آه! ها هو الثور!

(يذهب، خوار طويل من بين الصراخ)

بابو-

نعم، نعم، نعم، ألم لا مفر منه.

(يسود صمت عميق، ثم فترة سكوت، مكتئبا ومكسورا، يستند إلى الجذوع، يرجع بابو إلى الخلف قائلا)

ضائع... ضائع...

تعالي لتبكي بين الجبال أيتها العجوز

عجزت عن عمل أي شيء

لم تقدر.

(يمر كظل لوكاس باروسو هاربا من على الجسر الذي يربط بين الجبال)

لم تمض الأمور كما شئت،

كما كنت تتمنى،

اذهبي للبكاء بين الجبال،

هائمة... هائمة ....

(اختفى بابو، يتقدم الفتى 1 و2 حتى بداية المنصة، يتبعهم الرعاة وفتيان القرية،

وهم يبتهلون في ترنيمة كرثاء مؤسف، ويتقدمون ببطء)

الفتى 2- طاف ممزقا بين الصخور.

الفتى 3 – كم من دماء الثيران هدرت في الجبال!

الفتى 2- وادي راموس يريده على قيد الحياة.

الفتى 3– وادري راموس يبحث عنه حيا.

الفتى 2– لا يريد العمدة لوكاس باروسو.

الفتى 3– هو الذي سد عليه الطريق، لكن لم يوقفه أبدا!

(فوق الجسر عند نهايته ، يظهر بابو أمام السماء، واقفا نادما)

الفتى 2– هو الذي سد عليه الطريق عند حافة الجبل.

الفتى 3– هو الذي أطاح به في الوادي.

الفتى 2– رأيته وهو يسقط، ثور الدخان.

الفتى 3– ستجده ثورا بين الحجارة والريح.

الفتى 2– هي رأته من بعيد وهو يحتضر

الفتى 3– من بعيد، ارتطم كما الشلال.

الفتى 2– لقد تحطم كسفح جبل.

الفتى 3– كأنه ماء نهر تناثر على ضفتيه.

(يدخل خوان وبيدرو، يحمل فأس لا كاياردا)

بيدرو– هرب لوكاس باروسو، كظل جبان.

خوان– نجا من حد انتقام الفأس.

بيدرو– سأفصل رأسه عن جسده.

خوان– كلانا سينتقم يا كاياردا.

الفتى 2– سيأتي للبحث عن الثور لما تحل العتمة.

الفتى 3– سيأتي للبحث عن الثور بين الأغصان.

بابو–

مصيره سيبكيه إلى الأبد،

سيكون شغفا هائما للإنتقام.

(يذهب، إلى الخلف، تدخل لاكاياردا كما العمياء، تقف بين الفتيان، تحمر السماء)

الفتى 2- أنا أعرف الطريق.....

الفتى 1- استندي إلى كتفي.....

لاكاياردا(كأنها تكلم نفسها)-

طفل بيتي العنيد...

طفل ضائع... ناديتك...

أريد أن أشفي جراحك... بحثت عنك...

هل أصبت بطعنات.... هل أنت عطشان.... طفلي الصغير....

ارتشف من يدي جرعة ماء...

يا صغيري.... ما زلت فتى...

لكي تتصارع مع لوكاس باروسو...

لكن ما الذي يفهمه الثور حينما يلوح أحد أمام ناظريه بالقماش الأحمر؟

أين أنت؟ انت حيّ... ما زلت حياً....

(تسير رواحا ومجيئا، مستاءة، يظهر بابو عند أعلى الصخرة كما في الفصل الأول)

رسبلاندورس، يا ألما في أحشائي!

انظر إلي.... انظر! أنت لم تمت بعد... لقد أوجعتني...

كأنك في داخلي، تقفز كأنك قرنفلة

ولدت حديثا،

كحب أزهر مع انبلاج الصباح.

(تذهب بينما يرتسم في السماء ظل أحمر للثور، إزاء تعجب ودهشة الجميع لأنهم لا يرون سوى هذيانها.)

ترونه يرعى بين المروج الزرق،

بين حقول السماء، بين أجنحة الملائكة

الذي تحمله متوجا بالغيوم وأكاليل الزهور!

غنوا، غنوا! اضحكوا! ارقصوا! لنرقص كلنا!

اطلقوا النار على الطبل ونسمات المزامير!

(بغتة ينتابها اكتئاب)

أيها الرعاة....لا...لا...لا...

هيا بنا يا فتيان!

أي ثلج أخرس يخطف منا الهواء؟

ارقصوا أيها الفتيان! وهل ينفر أحد من الحسن؟

احترقوا بلا بصيرة!.... انظروا!... ألا ترون روحه

سأذهب إليه... هو.... لي وحدي يتألق...

(تركض وهي تلوح بيديها، في الوقت نفسه يتلاشى ظل الثور، لكن يبقى رسمه ككوكبة نجوم متلألئة)

رسبلاندورس، رسبلاندورس أنت روحي! انتظر! أنت نور شعاع عيني!

هل آتي اليك... الآن سأطير... لا تغادرني....

(تهوى على الأرض)

بابو(بينما تسدل الستارة)–

رسبلاندورس كان ثوراً كالنجمة

تبكيه لاكايارا إلى الأبد.

ليلة حرب في متحف البرادو

Noche de Guerra en el museo del prado

الشخصيات

الراوي

شخصيات اللوحات والرسوم المطبوعة للرسام غويا:

الأقطع (مقطوع الرأس)

المُعدَم

شاحذ السكاكين

الطالب

الفتاة

مصارع الثيران

الراهب

الكفيف

العجوز الأولى

العجوز الثانية

المقطوع الرأس

الحمار

الثور

فوج من المتضررين وسكان مدريد.

ترتدي هذه الشخصيات أزياء بداية القرن التاسع عشر: بعضها ألوانها زاهية أو قاتمة، وبقية الألوان رمادية ووردية أو سوداء وبيضاء، وتقترب بألوانها من الرسوم المطبوعة سواء الداكنة أو الفاتحة.

شخصيات لوحات تيسيانو (*رسام إيطالي*) هي: فينوس، أدونيس، مارتا.

ينبغي أن تظهر فينوس شبه عارية، يكاد جسدها يكون أبيض اللون، أما أدونيس فيرتدي زيا لون أزراره داكنة حمراء، يبرز عضلات ساقيه العاريتين ويرتدي صندلا، بينما يرتدي مارتا جلداً وقناع خنزير بري، شبه عار ويعتمر خوذة فولاذية.

شخصيات لوحات بيلاثكث (*رسام إسباني*) هي: القزم، الملك

يبدو القزم كما في لوحة عنوانها (دون سبستيان دمورا)

أما الملك فيبدو كما في لوحة (جنون الرعب) والتي تحمل الرقم 2 من لوحة غويا، يرتدي قلنسوة وعباءة داكنتين كألوان الفزّاعة.

الشخصيات التي تخص لوحة فرا انجيلك (*رسام إيطالي*) هي:

سيد الملائكة القديس جبرائيل، يرتدي عباءة وردية باهتة اللون.

الشخصية التي تخص لوحة اركيس(رسام مجهول لوحته موجودة في متحف البرادو):

سيد الملائكة القديس ميكائيل، يرتدي عباءة حمراء قانية اللون ويحمل سيفا.

الشخصيات المعاصرة:

رجل من المقاتلين رقم 1

رجل من المقاتلين رقم 2

تدور الأحداث في متحف البرادو الذي يقع في مدريد في تشرين الثاني من عام 1936

كثير من الجمل التي ترددها الشخصيات في هذا العمل المسرحي هي بعينها التي كتبها غويا في نهاية رسومه وأعماله المطبوعة.

مقدمة

الديكور: في الظل، تسدل ستارة كبيرة كأنها شاشة سينمائية، طبع عليها تصميم القاعة المركزية لمتحف البرادو بخطوط سود. عندما يظهر الراوي، يضاء وجهه بشعاع نور.

الراوي: ليلة سعيدة، سيداتي وسادتي، أو ربما يستحسن أن أقول لكم "صباح الخير "، لأن في نفس هذا التاريخ، في ذلك اليوم كانت السماء زرقاء وسطعت أشعة الشمس لتسند بيدها الدافئة جدران هذه الدار، لذلك سأقول: صباح الخير سيداتي وسادتي. لكن ...خير؟ لا، ليس بخير، لا. بل سيء وأكثر من سيء لدار الرسم هذه، بسبب تلك الأحداث التي وقعت في الثامن عشر من تموز لعام 1936.

دار الرسم، نعم هكذا أسميها، لأنها كانت أجمل مسكن أمضيت فيه سنوات مراهقتي وشبابي. كنت أقصده كل صباح وأمكث مأخوذا أمام لوحاته الأصيلة أو قاعاته الواسعة، فيتناهى إلى مسمعي بغتة عواء كلاب صيد ديانا أو ألتقي على حين غرة في غابة فسيحة " آلِهات كريسس الثلاث"، ناضرات وريانات كما قدمها لناظرينا ذات يوم إله الحقول الفلمنكية فاونو القوي (*لوحة للرسام البلجيكي روبنس*). ما زلت أراهن مندهشا كلما أغمضت ناظري، نعم سيداتي وسادتي، برغم مضي أعوام من الكدر والتعاسة، كنت فلاحا بسيطا لما تجرأت أن أدخل هذه الدار لأول مرة. (بعد أن ينحصر شعاع الضياء الذي يضيء وجه الراوي تظهر على الشاشة " آلِهات كريسس الثلاث" للرسام روبنس).

لم أكن أعرف حينذاك أن الحياة فيها صيف- تينتورتو وربيع- بيرونس ولا حتى الكريسس الشقراوات بصدورهن الناهدة يعدون في صالات متحف البرادو.

(يسود صمت وجيز) هكذا كانت الآلهات الثلاث ... وهكذا سيبقين، بفضل فن ومهارة بيدرو بابلو روبنس على جدران المتحف المدريدي. سيداتي وسادتي، تلك الدار التي كانت كما مسكني ما هي إلا متحف البرادو في مدريد.

(يسمع عن كثب دوي انفجار، فيتوارين "آلهات كريسس الثلاث")

صوت ما: ليس لدينا وقت لنهدره، فطائرات المتمردين قصفت العاصمة بقنابلها الأولى، وإن تأخرنا سنجلب الدمار لمتحفنا، وكأجراء عاجل في انتظار إجراءات أخرى، سنحفظ الأعمال الفنية في ملجأ البناية....

الراوي: وهكذا، بأمر من حكومة الجمهورية شرعنا في إنقاذ متحف البرادو، حلم حياتي الأول وقد أحيل إلى دم الحرب ودمارها.

(تظهر على الشاشة لوحة" إعدامات 3 أيار–1808 في مونكلوا(للرسام غويا)

مقاتلو الأيام الأولى، رجال من شعبنا، كأولئك الذين رآهم غويا يسقطون صرعى بإطلاق نار جنود نابليون الغزاة، ينزفون دما، ساعدوا في إنقاذ أشهر الأعمال. عام 1808 وعام 1936 وجهان لعملة واحدة، فالحماس ذاته يجري في عروقهم، وتحملوا عبء المسؤوليات نفسها، لربما أحدهم كان حمالا يطرق درب قشتاله.... (تتوارى لوحة الإعدامات). لربما شخص آخر يعمل سقاء في سان ايسدرو واتوجا وبراديرا دسان أنطونيو أو على ضفة نهر المنثناريس...(تظهر لوحة "براديرا دسان أنطونيو" للرسام غويا). وكما حدث في عام 1808، هرع فتيان مدريد والفتيات اللواتي يتسامرن بصحبة خطبائهن إلى النضال برفقة رجالهن.... (تتوارى لوحة "لابرديرا")، يعملون بإصرار على نقل لوحات ورسوم متحف البرادو إلى الملجأ، أكاد أسمع صوت احتجاجها وكأنها تدين ذلك الحدث غير المتوقع. (تظهر صورة مصارع الثيران وهو يتأهب للقتل) لقد حان دور مصارع الثيران....

صوت مصارع الثيران: لا، لا! دعوني أقتله، إنه ثوري الأخير(يتوارى ليحل محله لوحة مطبوعة تحمل رقم 37 من مجموعة" كوارث الحرب" (للرسام غويا) عنوانها " من أجل موسى".

الراوي: أما هذا فقد قتله جنود نابليون الغزاة طعنا! قد يكون متوسلا، عثروا عليه وقد طعن بالحربة عندما فتشوا... انظروا إليه! هو أحد أبطال حربنا الأهلية، يوجد أيضا رهبان وطنيون. (تظهر اللوحة المطبوعة رقم 38 عن "كوارث الحرب" أيضا). متوحشون! يصرخ غويا بنفسه عند أسفل اللوحة المطبوعة (تتوارى اللوحة) لقد شاهد الرسام أشياء أشد قسوة، لم يتجرأ أحد ما على نقشها على النحاس، حتى أنجزها هو بنفسه. (تظهر اللوحة المطبوعة رقم 39 وهي من المجموعة نفسها) انظروا، كأن الرأس المقطوع لهذا الرجل يصرخ مطالبا بالعدالة (تتوارى اللوحة) تلاميذ وجلادون وغوغاء دمجتهم كوارث الحرب القاسية، هرعوا أيضا لتغص بهم الملاجئ.

بعد ذلك قاموا بعرض عسكري كان مشهداً مكفهرا للأراغونيين، إنها محرقة الجحيم لمأساةإسبانيا الممزقة المتألمة، فيتناهى للسمع صوت الشعب الذي يتضور جوعا مغلوبا على أمره.

مجموعة أصوات: يا رب، يا رب، يا رب، يا رب، يا رب!

(تظهر لوحة " الحج إلى القديس ايسيدرو")

صوت الكفيف (مترنما برفقة القيثارة):

لو كنت أستطيع، لو كنت أستطيع

لأكلت حتى الجوع الذي يعض أحشائي

الراوي: إنه ابتهال الجرحى والمساكين الخائفين، ومن عضته التراخوما وهو يسير هائما في تلك الطرق والأسواق. بعد ذلك تظهر لوحة" جمعية الساحرات" بقسوتها لما تثيره من رعب، وجوه حائرة إزاء حوار غامض للشيطان الكبير، غاضب ملتحٍ وبقرنين.

صوت العجائز: 1و2و3 (يضحكن ملء أشداقهن): ها، ها، ها، ها، ها، ها، ها، ها!

الراوي (بينما تتوارى اللوحة): يضحكن ويضحكن ويضحكن العجائز من رقية زعيمهم الغامضة.

صوت العجوز (يظهر مقطع من لوحة" العجائز") كيف أبدو؟

الراوي: كيف أبدو؟ تسأل المرايا مئة مرة ماريا لويسا دبراما، التي أساء غويا معاملتها. إنها زوجة دون كارلوس السادس آل بوربون الطائشة، ولي عهد إسبانيا وسيد مستعمراتها الهندية.

صوت العجوز الثالثة: كيف أبدو؟ أنتم ترونها، قناعاً كبيراً خاوياً مغضناً يفوح بالعفونة! احذري لئلا يراك مانولو، لئلا يراك مانولو! ها، ها! (تتوارى اللوحة)

الراوي:مانويل كوديث والباريث دفرايا، إنه مانولها، كان جميلا، وضابطا وسيما في حرس كوربس الملكي(تظهر لوحة مانويل كوديو" حرب في البرتغال") وعلاقته الغرامية بالملكة جعلته يبلغ...

صوت الأقطع: إنه ديكتاتور!

صون المُعدَم: هو من ضيّع إسبانيا!

صوت الراهب: هو الذي فتح أبوابنا للفرنسين!

صوت الطالب: جاء بنابليون إلى أراضينا.

صوت شاحذ السكاكين: سلمنا إلى جنوده القساة عزلا.

صوت مقطوع الرأس: أهاننا وسحقنا، ثم أغرقنا بالدماء.

صوت العجوز الثالثة (تتوارى اللوحة): مانولي، مانولي، أي تقولات يقولون عنا! دافع عن حبيبتك... (من الداخل يضحك الجميع في الوقت الذي تظهر به على الشاشة لوحة غويا " حمار يسير على ساقين" تتحول الضحكات إلى فحش (تتوارى هذه اللوحة).

الراوي: تمر على متحفنا أوقات مفزعة، كنا نعمل ليلا ونهارا بلا استراحة. وبعد لوحات غويا، قاموا بإخلاء لوحات بيلاثكث إلى تحت الأرض. تظهر سوية لوحة " القزم دون سبستيان دمورا"، ولوحة "الملك فيليب السادس وهو يرتدي بدلة صيد". أتذكر على الخصوص ذلك السيء البشع دون سبستيان دمورا، القزم المفضل للملك فيليب السادس، وإهماله لواجباته تجاه مملكته من أجل رحلة صيد وعلاقاته الغرامية. (تتوارى اللوحتان) وبعد لوحات الرسام بيلاثكث، حملوا لوحات غريكو(*رسام كريتي عاش في إسبانيا*)....هؤلاء الفرسان في الظل، كلهيب ينزف، عذارى وقديسون نظراتهم منكسرة، ثائرون ومسحوقون كوحل متأجج، كانوا متلاحمين مع بعضهم كمن أصيب بمس. أما شخصيات ثرباران(*رسام إسباني*) فهي متجهمة، وبعدها لوحات ريبيرا(*رسام إسباني*) القاتمة تهتك فيها جلود الشهداء، ومن اللوحات القشتالية، جاء دور سيد الملائكة المحارب(تظهر "لوحة الملائكة" ويبدو فيها القديس ميخائيل) لقد نسيتها(تتوارى اللوحة). حان الآن دور المدرسة الإيطالية، فمرت أمامي روائع الرسام روفائيل، وبيرونس، وتينتورتو، وكائن سماوي آخر مجنح هو آخر الثالوث الملائكي المتألق: القديس جبرائيل. تظهر لوحة "إعلان لفرانجليك". سيداتي وسادتي، يحز في نفسي رؤية مخلوق هش في لوحة فرانجليك الجميلة، منحنيا بورع أمام قوام مريم الرهيف، يهرع أيضا صوب أبواب الملاجئ الداكنة. (تتوارى اللوحة).

أوشك العرض العسكري الغريب أن ينتهي... ولم تبق إلا لوحات تيثيانو في الأخير. كنت مرهقا ومتوترا من طول المراقبة ليلا ونهارا، على حين غرة مرت لوحة.... توقفوا لحظة من فضلكم! قلت للمقاتلين الذين ينقلونها. كانت لوحة تعلمت موضوعها من شعر كارثيلاسو، الذي طالما كنت أردد قصائده في زيارتي لصالة الرسام الإيطالي (تظهر لوحة فينوس وأدونيس):

ذاك هوأدونيس يبدي ما كان هو عليه

كما بدت فينوس المحزونة

ترى جرحه المتوحش ينزف دما

فتخر فوقه محنية

ثغرها فوق ثغره ليلتقط

نفحة من هواء قد يهب له الحياة

لجسد منحها في هذه الأرض الحقودة سماء عالية.

أبيات تشير إلى نهاية أسطورة فينوس وأدونيس، إلى قصة حبهما التي خذلتها غيرة أحد الآلهة (تتوارى لوحة بثيانو، يسمع عواء كلاب صيد متواصل وحزين). عندما توارت هذه اللوحة الأخيرة خلف أبواب الملجأ، خيل إلي أنني أسمع عواء كلاب أدونيس المتواصل، تهيم في الحقول....(يسود صمت). لقد تمت المرحلة الأولى من إنقاذ متحف البرادو، كان الشعب فخورا لأنه صان كنوزه، ومكثت الصالات خاوية إلا من آثار اللوحات شاخصة على الجدران. اليوم خارجا، لم تكن السماء زرقاء تظلل سطوح المتحف ولا أشعة الشمس تسندها بيدها الدافئة، لقد انتهى كل شيء، لكن قبل ذلك.... اغفروا لي نسياني رغما عني، لأنني لم أذكر لكم اسمي، لربما يهمكم، بإمكانكم أن تقرأوه على لوحة الإعلانات، في البرنامج كعنوان للمشهد الذي ستشاهدون عرضه خلال ثوان، والآن: سيادتي وسادتي أتمنى لكم ليلة هانئة.

(ترفع الستارة) يبتدئ الفصل الوحيد

الديكور الوحيد: قاعة كبيرة متوسطة لمتحف البرادو، خالية إلا من آثار اللوحات على الجدران، أحجامها مختلفة، إنها آثار اللوحات التي نقلت إلى الملاجئ، يكسو الرمل أرضه، بينما تتناثر أكياس رمل في كل مكان. تغطي الأكياس طاولات كبيرة تعود للقرن السادس عشر. إنها ليلة حرب في مدريد، أخطر أيام شهر تشرين الثاني لعام 1936، لما ترفع الستارة لا يمكن لأحد أن يتكهن بما هو موجود في المشهد. يتناهى صوت قصف من بعيد، من باب القاعة المظلم يقترب فانوسان، ضياؤهما أصفر اللون، كل من المُعدَم وشاحذ السكاكين، يضعان الفوانيس على الأرض ويقفان بقرب الطاولة، يحملان البندقية، بينما الأبتر يأتي برفقتهما يحمل سيفا طويلا.

الأبتر: (يخاطب الْمُعدَم والمتسول وقد بدا عيهما الإعياء) لنضع هذه الأكياس هنا، وتلك في الجانب الآخر، ينبغي أن لا نترك فجوة، نحكم سد الجدار، لنجعله متراسا كبيرا (يبدأ كل من الْمُعدَم وشاحذ السكاكين بنقل الأكياس على مهل).

الْمُعدَم: لقد احتلوا براديرا حسبما صرحوا به.

شاحذ السكاكين: وشوهد المماليك(مرتزقة نابليون) في شارع مايور.

الْمُعدَم: لقد زار الإمبراطور مرة أخرى جامرتين.

العجوز 1: (دون أن تظهر) ها، ها، ها، نابليون، إنه أمر مضحك.

الأبتر: (أطل من المتراس وهو يرفع الفانوس) من هذا الذي بين الأكياس؟ (تخرج من بين الأكياس التي تغطي الطاولة عجوز: كأنها فزاعة سوداء نظرتها كعيني البومة لها شارب وثؤلول تنبت عليه شعيرات).

العجوز 1: نابليون، نابليون، أنا أحتفظ بصورته في قعر مبولتي.... ها، ها، ها، يا للمسكين كيف يبدو كل صباح.

الأبتر: ماذا تفعلين هنا أيتها العجوز الساحرة؟

العجوز1: ما الأمر، أنا إحدى وصيفات الملكة، هل لديكم جرعة خمر؟ (تصرخ عاليا) إنها ليلة شديدة البرد، تبا لهذا البرد.

الأبتر: (يناولها قربة خمر علقها على كتفه) خذي واصمتي يا سكيرة، (يخاطب الرجلين) يجب أن لا نضيع الوقت، (العجوز1، تحتسي جرعة كبيرة وهي تضحك وتصرخ، ثم تختفي بين الأكياس، ثم ترمي القربة)، حسنا تلك التي هناك(يشير إلى أكياس مبعثرة في القاعة، فيقوم المُعدَم برفقة شاحذ السكاكين، لتنفيذ الأمر، لكنه يتكئ على المتراس منهكا) يبدو أنك غير متحمس للعمل؟ ما اسمك؟

المُعدَم(مقوضا كتفيه): أما؟ أيه؟ لقد أعدموني في مونكلوا ويدياي مكبلتان بسبب أحداث 2 أيار في ساحة الصول، فرنسيون كلاب! لا أعرف اسمي، لقد نسيته، يمكنك أن تطلق عليّ اسم المُعدَم.

الأبتر (يلتقط القربة من الأرض ليناولها له): خذ(بينما يرتشف منها جرعة) ماذا كنت تعمل؟

المُعدَم: بغّالا بين طليطلة ومدريد، وصلت قبل ليلة..(بعد صمت وجيز) لكنني أفضل(للشاحذ) هلم بنا.

شاحذ السكاكين (يحاول السير، لكنه يهوى على ركبتيه): استلوا أولا هذه السكين من عظامي لأقوى على التنفس.

(يفترش الأرض الخشبية)

الأبتر(يحاول أن يستل السكين التي غرزت في وسط صدره حتى المقبض): لنحاول! وأنت! إنه بالغ العمق ولا تقوى يد واحدة عليه.

المُعدَم(بعد أن تمكن من إخراج السكين): إنه قوي، لم حدث هذا؟

شاحذ السكاكين: بسبب هذه السكين، كنت أعمل، شاحذ سكاكين في أحد الشوارع، ولما فتشوا بيتي وجدوا هذه السكين في أصيص جيرانيوم، فأعدموني شنقا، ثم غرزوا هذه في صدري وذهبوا.

صوت العجوز 1: فرنسيون ملاعين، ها، ها، ها.

شاحذ السكاكين(للأبتر وهو ينهض): أين بقية جسدك؟ لم تأت إلى العالم بلا ذراع.

الأبتر: كانت مهنتي هي إبريق فخار وجرة، كنت أنادي في البرادو وللابرديرا وسان انطونيو(بصوت مختنق) ماء عذب! ماء من نبع البيرو، وبعدها عملت مدفعيا لأدافع عن بارك ميلتون، فبترت ذراعي بشظية.

شاحذ السكاكين: سنطلق عليك اسم الأبتر وقبطاننا، هنا لا يوجد مكان للجنرالات. ستتولى قيادتنا، أنا معجب بك.

شاحذ السكاكين والمُعدَم(يؤديان التحية العسكرية): بأمرك.

العجوز 1(تطل برأسها): أحسنت، أحسنت يا قبطان الملكة! أنا برهن إشارتك.

صوت 1(من الدجنة): بأمرك!(يظهر التلميذ)

صوت 2(من الدجنة): بأمرك! (تظهر الفتاة)

صوت 3(من الدجنة): بأمرك! (يظهر مصارع الثيران يحمل بيده سيفا) بأمرك.

(تردد الكلمات في الظلام حتى تتلاشى. يسمع دوي انفجار).

الفتاة: يسوع! إنهم يقصفون عن كثب.

الطالب: يبدو أن مدريد تحترق.

الفتاة: هل يمكن معرفة ما يجري؟ كنت أسير في سان ايسيدرو برفقة خطيبي، بغتة دوت انفجارات فأنزلونا إلى الملاجئ على عجل.

الطالب: جاؤوا بنا إلى هنا، وبقيت صالات هذه الدار خاوية.

مصارع الثيران: لم أستطع ابدا أن أقتل ثوري، بالرغم من أنني أحمل السيف.

المُعدَم: امسك به جيدا بقبضتك، لأنه سينفعك.

العجوز 1(تظهر من جديد تحمل مكنسة): هل ستقتل الفرنسيين بسيفك؟ لأنهم هنا في إسبانيا مجرد دجاج! سأسحقهم بمكنستي جميعهم! ها، يجب أن تطيعوني أولا ها، ها،(تضحك).

الطالب: ولكنك هنا إيتها العجوز؟

العجوز:احترمني أيها الكلب، أنا وطنية مثلك، ووصيفة الملكة، ملكة إسبانيا الحقيقية.

الطالب: سيطول الكلام عن ملكات إسبانيا.

العجوز: ليست ملكتي يا ناكر الجميل، لأنها سيدة بحق، صاحبة الجلالة سيدة مهيبة وعظمية.

الأبتر: لا تضيعوا الوقت، هيا بنا.

مصارع الثيران(يهدد العجوز بالسيف): اطيعي أوامر الرئيس أيتها البومة.

العجوز 1: الرئيس، الرئيس، مصارع في قدمه حشرة، منظرك حقا يثير الضحك وأنت تهرول.

المصارع: سأطعنك وأرمي بك بين الأكياس(يهجم على العجوز فتختفي بين الأكياس).

الأبتر: كفى، يجب أن تطيعوني أولا؟ ينبغي أن نحمي هذا الباب المؤدي إلى خيرونيماس وبسرعة.

(يجتهد الجميع لمواصلة عمل المتاريس، تدوي أصوات انفجارات عن قرب)

الفتاة(تحمل كيسا، بمساعدة شحاذ السكاكين): إنهم يقصفون من جديد، لم أسمع دويا كهذا.

شاحذ السكاكين: هل تذعرك المدافع يا صغيرتي؟

الفتاة: أنا؟ لا المدافع ولا الرشاشات، ولا السيوف، انظر ما لدي(تقف وترفع سترتها لتكشف عن جرح كبير).

شاحذ السكاكين: متوحشون! يصعب النظر إليه.

مصارع الثيران: يا لها من طعنة، أشد من طعنة الثور.

المُعدَم: النساء عنيفات، ويمنحن الشخص عزيمة، لقد أعدموني معها، وما صرخت به من كلام! بتروا ذراها بسكين ثم طعنوها بها.

الطالب(وهو مستاء): ملحمة هائلة مع الأموات!

الأبتر: لا يوجد هنا رجال ونساء، كلنا سيان. ناس شرفاء من شوارع إسبانيا.

(يظهر الراهب في الدجنة، يعلق على خاصرته قربة)

الطالب: أهلا بالأب، ليلة هانئة.

الراهب: لا تضحكوا، لقد أثقل الفرنسيون كاهلي.

الأبتر: لا أحد يرتاب في ذلك يا أبتي، أنت واحد منا، تساعدنا في عمل المتاريس.

شاحذ السكاكين: من هو ذلك الدون جوان؟ سمعت شيئا ما...

الطالب: ثمة سافل.

المُعدَم: وما معنى ذلك؟

الطالب: حسنا... كيف أوضحه لك؟ الذي يولد بدون زواج.

المُعدَم: تقصد ولي العهد ابن....

الراهب(مشيدا به): لا! لا! إنه بطل عظيم! لقد انتصر على الهلال المحمدي في أغرب المعارك عبر العصور.

الأبتر: "الموروس" دوما!

الراهب: تقصد المماليك! الحرس الوطني للإمبراطور.

الفتاة: هم من صدعوا جسدي بطعنات سيوفهم! فقأت عيون أكثر من ثلاثة من خيولهم.

الراهب: أنت شجاعة حقا أيتها الفتاة الجميلة! كنت أسير أغلب الأيام بملابس فرنسية، منحتنا إياها الحرب! حتى اكتشفوا صفتي الدينية، وكادوا يعدمونني أو يرفعونني على خازوق.

العجوز 1(تطل وهي تترنم): راهب، رويهب، راهب، وبغل، يعجبك، يعجبك النبيذ أكثر من الحساء

(يضحك الجميع)

الراهب: أنت محقة، أيتها الساحرة القملة، لكن ستعلمين الآن من هو هذا الراهب.

(يهم لينقض عليها، لكن انفجارا أقوى مما سبقه يرغمه على أن يركع أرضا، وينبطح الآخرون أيضا. تستمر الانفجارات شديدة، وتضج أصوات في الدجنة).

المُعدَم: قتلة.

مصارع الثيران: الجدران ترتعد!

الراهب: إنها ليلة نهاية العالم! إنه سفر الرؤيا للقديس يوحنا.

شاحذ السكاكين: ولكن ما هذه الأسلحة؟

الراهب: إنه غضب الرحمن، إنها مدافع الجحيم.

العجوز 1(تضحك بأسى): ها، ها، ها، ها، ها، ها.

(يسمعون ضجيجا مبهما، يتساقط الزجاج متهشما ويصدر عواء حزينا)

الطالب: إنهم قادمون من تحت الأسوار.

الأبتر: تحمسوا! تحمسوا! الفوانيس! أوقدوا الفوانيس، لدي يد واحدة فقط! الضياء، الضياء.

(وبدلا من ضياء الفوانيس، تسلط من الأعلى وعلى الجانب الأيسر للصالة، حزم من الضياء، تظلل المتاريس. يبتعد صوت دوي المدافع، يتقلبان على الأرض، شبه عاريين، فينوس وأدونيس)

فينوس(كالمستيقظة، شاردة عما يحيط بها): لقد تملك الإله الرعب، أدونيس، أدونيس، أين أنت؟

أدونيس (منحنيا عليها): حبيبتي الأنقى من صفاء الربيع، الأشد نضارة وأعذب من تفاحة اقتطفت عند بزوغ الفجر، الأكثر رقة ونضارة من الوردة.

فينوس: أدونيس، أدونيس! أين نحن؟ هل أنت جريح؟ أنا مذعورة يا حبيبي.

أدونيس: آه يا فينوس! يا طفلة الرغوة البيضاء! لا ترتعدي، انهضي، سنهرب إلى أعماق الغابة. هربت كلابي، وتحطم لجامها، وفقدت سهامي. نحن بلا حماية، غضب مارتا الأحمر يطاردنا، أسمع دوي سلاحه، سيقتلنا.

فينوس: لن تطالنا رعوده ولا صواعقه يا أدونيس. فسلاح الحب أقوى من سلاحهم، أنا وأنت نمثل السلام وغصن الزيتون، وهديل الحمام، وأزهار الجنائن وكل ربيع، لنغادر هذا المكان بسرعة.....

أدونيس(يشدها من ذراعها لتنهض): فينوس، فينوس.

فينوس: أدونيس، أدونيس!(يمكثان متعانقين، تتغير حزم شعاع الضياء بأشعة نور الشمس المشرقة)

آه، انظر! أشرقت الشمس يا أدونيس. (يتأملان بعضهما).

أدونيس: أريد أن أستمتع بجمالك يا فينوس، بالريحان الأخضر في شعرك....

فينوس: شعرك، كسنابل مدروسة جففتها الشمس.

أدونيس: بشرتك، كأن ورودا بيضاء نسجت جسدك بخيوط من عسل.

فينوس: بشرتك، كزهرة بذرها النسيم في كل جسدك.

أدونيس: نهداك بارزان كأمواج قرنفل.

فينوس: ساعدك قوي للصيد، لكنه أشد صلابة ليعبر بي فوق نعناع وبرسيم الجداول المختبئة... وأشجار الزان، والبلوط، بروعتها تسدل على حبنا ستارا... لنذهب يا أدونيس.

أدونيس (مطوقا خصرها، ويبدأ المسير): آه يا فينوس، يا فينوس!

(يسمع صوت قباع ودمدمة طويلة، يتوقف كل من أدونيس وفينوس محتارين، يظهر رجل متنكرا بزي خنزير وحشي ويرتدي قناعا). الكلاب، الكلاب! أين سهامي؟ أين سهامي؟ آه يا وحش الجبال، تأتيني عندما أكون بلا سلاح .

فينوس (تصرخ، ممزقة): أدونيس! أدونيس!

(يتقدم الخنزير الوحشي بسرعة، لينقض على أدونيس بغتة، وهو بالكاد يسحقه بين ساعديه) إنه حقد وغيرة مارتا! حقد بلا رحمة لإله تافه بلا بصيرة، انتقام تعيس حالك كما سواد الليل)

أدونيس، أدونيس (يسقط أدونيس صريعا بطعنة من نابه، يدوي صوت الرعد، ويخفت الضياء)

أدونيس (يحتضر وفينوس تجثو بجانبه): فينوس، فينوس!

(يتجرد الإله مارتا من قناع وجلد الخنزير ويسير خلفهما منتصرا)

فينوس (تضم إليها جسد أدونيس باكية): مات شباب العالم، وعبير الجنائن، وربيع الحقول، الحرب! ستأتي الحرب الآن! ويأتي معها الدم والموت! أدونيس، أدونيس!

(يخفت الضياء كليا، ويمكث المشهد مضاء، ثم يسود صمت)

صوت في الدجنة: أنا جائع، لطالما شعرت بالجوع ليلا! يا عباد الله الطيبين، أغنية شعبية مقابل كسرة خبز.

(يسمع عزف قيثارة حزينا. يغادر كل من فينوس وأدونيس بينما يضاء فانوس المتراس، يأتي الكفيف وهو يرتدي معطفاً وملابس رثة ويغني بأسى)

الكفيف (برفقة القيثارة): بالقنابل التي يقذفها الأوغاد، تزين المدريديات ذؤابات شعورهن (يسود صمت) يقولون إن الجوع أسود، كل الأشياء سوداء بالنسبة لي.

(يضحك وحيدا، بائسا. تسري عدوى الضحك إلى جميع من في المتراس، بنغمة مثيرة ساخرة)

الأبتر(صارخا): كفى!

(يصمت الجميع فجأة)

الكفيف (بعد فترة صمت): أنا أتضور جوعا.

الأبتر(بجفاف): كلنا نتضور جوعا.

الكفيف: هل أنتم هنا؟ من أنتم؟

الأبتر: الرعاع، هكذا يسموننا.

الكفيف: أنا أيضا من الرعاع برغم أنني مكفوف البصر، اعطوني شيئا ما.

الأبتر: جرعة نبيذ فقط. لا شيء آخر.

الكفيف: سأشربها، برغم أنني أفضل صحنا من الحساء. أنا أرتعش، ما أسوأ أن يستجدي الإنسان.

الراهب (يناوله القربة المعلقة بخصره): صبرا يا أخي، إنها ليلة حرب.

الكفيف (يحتسي بعض الجرعات): وهل هذه نصيحة من الله؟

الراهب: نعم، وعن طريق ثغر راهب الرحمن.

الكفيف: محتال! فأنت تملأ بطنك وتنظف ريقك بالنبيذ الأحمر، حتى لتبدو أكثر سمنة من الخنزير، بل تشبهه! (بسخرية) الصبر (يشرب جرعة أخرى)

الأبتر (ينتزع منه القربة): اعطني هذه القربة، ليس فيها إلا القليل، الآخرون أيضا عطشى.

الكفيف: الآخرون؟ هل أنتم كثيرون؟ ما الذي تفعلونه هنا.

الأبتر (يومئ إلى البقية كيلا يتكلموا): تلح بالأسئلة.

الكفيف: لا أبصر.

الأبتر(مسرعا): من أي الشياطين قدمت؟ وأي ناس ترافق؟ وإلى أين وجهتك؟

الكفيف (بنغمة متنامية): لا أبصر، لا أبصر، لا أبصر.

الأبتر (يمسك به من ثيابه): أجب! أجب! (يصرخ به، وينتزع منه القيثارة ويهزه) ما الذي تحمله داخل القيثارة؟ ما الذي تحمله؟ تكلم.

الكفيف (بثقة لكنه غاضب: لا شيء، لا شيء، حطمها إن شئت! فأنا لا أبصر، لا أبصر. أنا قادم من لابرديرا، من زمرة الأعور والأعرج والأحول والأبتر وكل المتضررين من مدريديين نهشهم القمل. فتشوني! أو عروني! مزقوا أسمالي! اكسروا قيثارتي! فأنا لا أبصر، لا أبصر.

الأبتر (يعيد له القيثارة): ظننت... هناك من ينقل الأخبار للفرنسيين.

الكفيف: أكره الأجنبي، بل لا أعرف حتى شكله. لكنني أسمعه، وأحس به هنا دوما، متشبثا بجسدي، هو الذي اقتلع البصر من عيني.

العجوز 1 (تظهر): ها! ها! أعرف ذلك الرجل...

الطالب: ولمَ احتفظت به بحوصلتك أيتها الخفاش؟

العجوز 1: كنت أحلم بين الأكياس، كان فتى طيبا، وما قاله من غزل مثير في جمالي! ويده كانت جريئة، ها! ها!

الكفيف: أنت يا مشط الملكة، فزاعة جهنم، مكنسة المبولة، يا غائطا يزين شرج البلاط؟ (يبسط يده ليبحث عنها) تعالي لأقبض على صدرك اليابس مثل الدجاجة... (يبدأ قصف المدافع مرة أخرى) انفجارات!

الفتاة: القصف مرة أخرى.

الكفيف: هل ترعبك يا صغيرة؟ لو شئت فعباءتي ملاذ جيد لك؟

الفتاة: أستر عظامك بأسمالك أيها التعيس، فالقذائف على جسد طاهر تضحكني.

الكفيف: وهل أب الرحمن الكريم يضحك أيضا؟

الراهب: نعم.

الفتاة: والمُعدَم يضحك أيضا.

المُعدَم: نعم.

الفتاة: وشاحذ السكاكين والمطعون بالسكين.

شاحذ السكاكين: نعم.

الفتاة: والطالب والثور.

الطالب والثور: نعم.

الفتاة: وجامع القمامة والحلاق والساحرة المرعبة بمكنستها والأرمص والعنكبوت وجميع ناس إسبانيا الطيبون.

العجوز 1 (تنفجر ضاحكة): ها! ها! ها! ها! ها! ها!

يشتد قصف المدفع، وبإشارة من الأبتر يدخل الجميع خلف المتراس ويساعدون الكفيف لأن يدخله.

اقصفوا، اقصفوا، يا جبناء! نحن مقاتلي الثاني من أيار، المطعونين بالسكاكين، والمسحوقين في ساحة الصول! المشردين في كاسادكامبو وعلى شاطئ نهر المنثنارس. ستبكون فيما بعد أكثر مما نضحك نحن الآن.

الكفيف (يشرع بالغناء من أعلى المتراس ويشاركه الآخرون): مدريد، يا لمقاومتك الباسلة، يضحك المدريديون من القنابل!

(يضحك الجميع، ثم يسود صمت، ويظلُ المتراس. يتقدم جنديان من داخل الصالة من الحرب الأهلية الإسبانية، يهمسون بنفس الأغنية: " مدريد، يا لمقاومتك الباسلة"، يرتديان أزياء شهور القتال الأولى لعام 1936. الجندي الأول يلف ذراعه بضماد، والثاني، يحمل مصباحا يدويا يسلط ضياءه على كل زوايا الصالة وسقفها وهو يتحدث.

الجندي 1: شعروا بالخيبة هذه الليلة.

الجندي 2: القذائف تتساقط قرب متحف البرادو، لربما أحدهم قد أصاب الهدف، من الصعب أن ينجو منها، عاجلا ستجلى أشهر اللوحات، سينقلونها بعيدا إلى أماكن أكثر أمانا، لأنها معرضة للخطر هنا، التقنيون يعملون بلا راحة. هنالك لوحات كبيرة رأيتها في الملاجئ، لا أعرف كيف يستطيعون إخراجها من الباب، كانت لوحات غويا معلقة هنا " الماليك في ساحة الصول"، ولوحة " إعدامات مونكلوا"، وفي الداخل لوحات تسيانو ولوحات بيلاثكيث.....

الجندي 1: لن تبرح ذاكرتنا تلك الأيام من 1936، في يوم كانون الثاني كانت مدريد تستعر.

الجندي 2: اندلع القتال في اوسيرا، و كاسادكاميو، والمنثنارس، وجسر الفرنسيين، ومنكلوا، والمدينة الجامعية... كانوا يقاتلون وهم ثائرون.

الجندي 1: يؤسفني ما يحدث لنا، لقد جرحوني في الجبال.

الجندي 2: أظن أنهم يتقدمون، لقد شُوهد الموروس في شارع كران بيا.

الجندي 1: فتيات الجسر الجنوبي قاتلن كما اللبوات على جسر طليطلة.

الجندي 2: كلهم يقاتلون، الصغار والكبار، بالحجارة وبقناني السائل المحرق، وبأسلحة قديمة لا أحد يدري من أين جاؤوا بها. (يسيران باتجاه الجانب الأيسر من الصف الأول للمسرح)

الجندي 1: أصبحت مدريد قريبة، لكنهم لن يمروا.

الجندي 2 (يهم بالانصراف): لن يمروا، ولا حتى بمساعدة الألمان، ولا الموروس، ولا الإيطاليين، ولا البرتغاليين.... (يتوارى الاثنان) لن يمروا.

(من ظل القاعة القاتم يظهر قزم ملتح، في غاية القبح، إحدى شخصيات الرسام بيلاثكث" دون سبستيان دومورا"

القزم: في الواقع لا أعرف أين أنا، لقد فقدت ملكي (يجول بناظريه كمن يفتش عنه)، آه، أنت يا ذا الأنف الكبير! هل أنت هنا، ضراطك هذه الليلة سيكون قويا، لقد قُصف القصر، إنه كالرعد، مسكينة سيدتي الملكة، (يصرخ) فيليب، فيليب، مع أي الشياطين ذهبت؟ امسكوا بصندوق الرعد، سيغمى عليّ يا فيليب (يتظاهر بالبكاء) اغلقه بسدادة، لنذهب، أنت تعلم أي مكان أعني، لا تكن تافها، لا يليق في مملكة كبيرة كمملتك أن تدخل الرعب لأفضل صديق لك. (تدوي عن كثب رشقات مدفع رشاش، وبعدها يسود صمت مرعب) سابقا كان الضراط فجأة والآن أصبح واضحا (يتظاهر بصليل مدفع رشاش) بو، بو، بو، بو، يستطيع الملوك عمل الكثير، لديهم قدرة في مؤخرتهم على طهي وتفجير أوامرهم (يسمع صفق باب يثير الرعب) أنا مذعور، أنا أرتعش حقا يا فيليب، لا تسئ إلى قزمك الصغير، إلى خادمك المخلص سبستيانو دومورا.

(ينخرط بالبكاء، ينفتح باب أرضي ويطل منه كمّ عريض ككفن أسود، يوشم القزم علامة الصليب، جاثيا على ركبتيه) يا سلطانة الملائكة، يا ملجأ المذنبين، يا معونة النصارى، يا عزاء المحزونين. (عندما ينتهي من كلامه يخرج من الباب الأرضي شبح طويل مفزع، مغطى بكفن أسود مترهل يتجول، ثم ينهار، صامتا على الأرض، يطلق القزم صرخة، وبعد ذلك يدنو مرتعبا وينحني فوق الشبح المتهادي، يقرر في النهاية أن ينزع الفانوس من يده، ثم يرفع قلنسوته ليكشف عن وجهه، يندهش صارخا): الملك! (يجثو لتناول الرأس الملكي بكلتا يديه) لقد أرعبتني! ما هذا التصرف الأرعن يا فيليب! لن أغفر لك أبدا، سأنتف شاربك كيلا يتعرف عليك أحد. لم أر إنسانا أكثر منك تفاهة وقبحا!

(يحاول الملك أن ينتصب بقامته، لكن القزم يقفز مفزوعا، فيفزع الملك بدوره، فينهار مرة أخرى)

الملك: آه! من سيعترف بي، إنني الملك فيليب السادس.

القزم (يبقى): لا أحد.

الملك: هل أنت هنا يا دون سان سبستيان دمورا؟

القزم (بحزم وشجاعة): نعم أنا هنا، ما الذي حدث؟

الملك (يرفع نصفه المترهل على مهل): كم كابدت هلعا لأبحث عنك.

القزم (متبجحا): جلالتك يخاف! أكاد لا أصدقك يا فيليب.

الملك (مبهورا): يا للهول! أنا اعتبرك كأبني.

القزم (مزهوا): أنا؟ صوت المدفع يحمسني، فأشعر كأنني الكونت جون داوليبارس يمتطي فرسه بكامل قيافته.

الملك: سبستيان أنت الآن وحدك من يصغي إلي، ويجب أن أعترف لك أن طلقة بندقية قديمة قد تهشمني.

القزم: هلم بنا، تعني يا سيدي إنك تجد نفسك ملزما لأن تتغوط.

الملك: تقريبا، تقريبا.

القزم: هل هو سر عسكري وليس من الرصانة إذاعته في البلاط؟

الملك: سأكون ممتنا لك، أشكرك يا سبستيان.

القزم: أنا لا ترعبني القنابل ولا الحراب، يجب أن تمنحني لقب البطل، امنحني هذا اللقب حالا، أنا آمرك، اجعل لي شأنا يا فيليب.

الملك (أغمي عليه): آه، آه، آه.

القزم (يثب مرعوبا): يا ابن العاهرة (يجثو مرة أخرى لتناول القناع) هل ستموت الآن؟ هل ستتركني لوحدي؟ من الذي يا سيدي سيرفس أردافي المكسورة؟ من؟ إن لم تكن أنت؟ من ذا الذي يا جلالتي سيعلنني أمين سر علاقاته الغرامية، إن لم تكن أنت؟ ما أكبر مصيبتك يا دون سبستيان دمورا! (يغير لهجته الشاكية) هلم بنا يا ذا الأنف الكبير، انهض أنت ما زلت حيا وابعد عنك الأوهام، سترى(يبصق بيديه ويفرك بها وجه الملك)

الملك (يعود لرشده): لا أستطيع أن أفهم سبب هذه المعركة، هل نحن في حرب يا ابني؟

القزم: وهل تركوا عائلتك الملكية تحيا بسلام؟

الملك: نعم، ولكن الآن...

القزم: هيا بنا، انهض يا جلالة الملك، لنهرع إلى مكان أكثر أمانا.

الملك (يعينه القزم على الوقوف): هل الله يعاقبني على ما اقترفته من ذنوب؟

القزم: لربما هو استهزاء الشيطان منك.

الملك: هل تظن ذلك يا سبستيانو.

القزم: تلك العلاقات الغرامية المحرمة، وتبذير المال في ترف أحمق، والقناعة بأن الناس الأشراف يمكنهم أن يعيشوا من الريح فحسب...

الملك: اصمت، اصمت.

القزم (يغني بصوت حزين أجش): الشريف، فارس مسكين ونبيل، إن ألمّ به مرض لا يحصل على الخبز واللحم، استنفدت قواه الضرائب الإسبانية، لأنها تقتات على سيقان نبات الكرنب. (يغلق الملك أذنيه، ويستمر رجع صدى صوت القزم) عوائل بلا خبز وأرامل بلا ملابس، ينتظرن جائعات بكم الأفواه.

الملك: آمرك بأن تلتزم الصمت.

القزم: انظروا، فالمساكين فقط والمستضعفون، يستغيثون بكم بألف صرخة.

الملك: سبستيانو لقد أمرتك، فأطع أمري، أنا الملك.

القزم: الأثرياء يرددون عاليا: لقد فقدنا كل شيء، لنغرق جميعا...

الملك: سأشنقك يا دون سبستيانو، سأقتلك بنفسي، اصمت. (يوشك أن ينهال ضربا على القزم الذي يسرع بالاختفاء خلف المتراس، ويبقى الملك ساكنا مندهشا) سبستيان (يصمت ثم يصرخ هلعا) سبستيانو أين أنت؟ لقد صفحت عنك، لا تترك ملكك وحيدا، (يصمت ثم يوشك على البكاء) لا تعذبني يا ولدي، عد إلي، يمكنك أن تواصل الغناء (صمت) قد أكون حيا أو في الصالة المجاورة للجحيم.

القزم (يظهر ثانية، ساخرا بهدوء): ربما ستكون كذلك لو تأملت صفرة وجهك وما ترتديه من ملابس غريبة هذه الليلة.

الملك (يعانقه بحرارة): لا تهزأ من والدك الطيب، لقد تنكرت لأجلك، ولا أريد أن يتعرفوا علي.

القزم: هل تعرف سبب خوفك يا ولي أمري، ولي أمر هلوع، أما أنا فلا، انظر إلى هدوئي.

الملك: أنت شجاع دائما. (يتردد قصف المدفع)

القزم (يدمدم مرعوبا): بو..ت...ت!

الملك: أنا مهدد يا إلهي، هذا مساء خلاصي! (يتشبث بشعر القزم، عندما يراه يولي مدبرا) لا تتركني يا سبستيانو، لا تهمل ملكك، دون فيليب المسكين.

القزم: لا ملك ولا هم يحزنون!، إذا، سأهرب من هنا كيلا يقتلوني.

الملك (يتركه ويتجه نحو الباب الأرضي): هل سترافقني، سأحملك، أترغب بذلك أم لا؟ اعرف مكان مبولة محصنة: المبولة الملكية، هلم بنا.

(يلجآن إلى الباب الأرضي، ثم يختفي ويتبعه القزم. يسود صمت، ويشاح الظل عن المتراس)

الطالب: الضحك مفيد يا أبتر، لكن ما هي أسلحتنا؟ بندقيتان قديمتان، وسيف مثلوم، وسيف لقتل الثيران، وسكين، وقيثارة... وبرد الليل.

الفتاة: سكين! بل اثنتان، فأنا أمتلك سكينا أخرى خبأتها في جوربي (ترفع تنورتها لتخرجها)

الراهب: وسكين صيد، احتفظت بها بين طيات ثيابي.

العجوز 1: ومكنسة تعادل عشرة مدافع وشيئا آخر لن أظهره.

الكفيف: أنا لا أحمل شيئا... لكن في رأسي توجد قيثارة كبيرة مؤثرة.

الأبتر: وما كانت أسلحتنا في 2 أيار! هيا يا شاحذ السكاكين، أنت تملك بندقية، أعط السكين للطالب.

الطالب (يتناول السكين): لكن الوضع قد اختلف الآن، فقذائف المدافع هي أمر جديد علينا.

الأبتر: هذا ما يحدث، نحن من عامة الناس ولن ينقصنا السلاح، فهو موجود في كل مكان، وإن اقتضى الأمر فبأسناننا وأظافرنا، ليعلم الغزاة ذلك.

المُعدَم: هذا أمر أكيد يا قائدنا، وإن قتلونا فسنبعث من جديد.

الطالب: يقال وهذه حقيقة: إن الشعب لن يموت، لكنني حلمت بمدفع كبير استطاع بمفرده أن يبيد أولئك الذين يريدون أن ينالوا من مدريد هذه الليلة.

شاحذ السكاكين: لن نحتاج إليه، وأنا على يقين بأنهم لن يمروا، فالآخرون سيقاتلون في كل مكان.

الراهب: إنها ليلة الأبطال يا أبنائي، حتى الحجارة تغني. أرى شبحاً لشرير يسد أذنه، يختبئ بين النار والدخان، يريد أن يدخل لكنه لا يستطيع، يحاول أن يشق طريقه بين ألسنة اللهب، لكن ثمة متراساً من صدور لا تُقهر تجبره على ملازمة مخبأه.

العجوز 1 (كالمحمومة): نعم، نعم، أنا أراه هنا، انظروا اليه! ضفدع بري بدين مترهل، يبلع لعابه في كرشه، أنت أيها المجرم، كم من الدم تجرعت هذه الليلة؟

الكفيف: إنني أراه، أراه، أنت من فقأت عيني، يا ابن الكلب، أنت.

المُعدَم: أنت جئت بالناس الذين أعدموني.

شاحذ السكاكين: أنت الذي طعنتني بالسكين.

الفتاة: أنت الذي طعنتني بخصري، أنت.

الأبتر: هل ترى هذه الذراع، انظر إليها، لم يعد لها وجود، أنت من بترتها برشاشة عمياء.

مصارع الثيران: أنت خائن، وقاتل، وسارق أرضنا.

الجميع (يدينون الظل وأياديهم مبسوطة): أنت، أنت، أنت.

(تنطلق من العمق صرخة طويلة، يدنو من المتراس رجل يحمل في يده رأس دمية)

الأقطع: العدالة، انصفوني. لقد قطعوا رأسي بالمنجل، لكنني ما زلت أتكلم وسأواصل حتى نهاية العالم.

الأبتر: يا لها من حياة مريرة.

الأقطع: هكذا عاملونا، يقولون إننا من نسل آخر، لكنني لم أمت، ولن أموت أبدا. سأطالب بالعقاب، والانتقام لما اقترفوه. العدالة، العدالة.

الأبتر: لقد جئت إلى مكان مناسب، لأننا نطالب بما تطالب أنت به، معدومون وجرحى ومتضررون وقتلى وفاقدو البصر وتعساء مستعبدون. لكن في داخلنا بركان يستعر ليحرقهم.

الراهب: الحرب، الحرب.

العجوز: يجب أن لا نسلمهم الثكنة.

الطالب: سنحتاج للتراب لتغطيتهم. (يسمع عن قرب فرقة المشاة، كأن صداها يرن داخل المتحف)

مصارع الثيران: الحرب!

الأبتر: ليذهب كل واحد إلى موقعه ونحتمي بالمتاريس، أطلقوا نار البنادق. (المعدم وشحاذ السكاكين يضغطان على الزناد)

المُعدَم (غاضب): إنها قديمة وصدئة ولا تطلق النار.

شاحذ السكاكين: لكنها ما زالت صالحة، لأن زنادها ما زال يعمل.

الأقطع (يصعد إلى أعلى المنصة، ويحمل رأسه بيده): نعم هذه رصاصة أخرى، بل إنها الأفضل. تحمل في داخلها مائة ألف شعاع من الكراهية، ولا يمكنهم مقاومتها. (يرمي برأسه قرب باب المتحف، ثم ينزل لتفحصه)

الأبتر (من الأعلى): لم يمت، ولن يموت، مثلنا.

(تتوقف فرقة المشاة، يسود صمت، ومن موقعه، يتأمل المقطع وقد تمرغ في التراب)

المُعدَم: ها أنت، سقطت صريعا ببدلتك، لِمَ جردوك منها وتركوك عاريا، كما فعلوا بالكثيرين؟

شاحذ السكاكين: تركوه عاريا، ليستفيدوا من موتاهم!

الفتاة: رأيت جنودا عند منتصف الليل يجردون الأموات من ملابسهم, أي يسرقونها.

مصارع الثيران: لكن أسوأ ما رأيته هو دفنهم أحياء.

الراهب: إنها آلام شعبنا المقدس، العاري، الظمآن، أدمى من المسيح في أرض الجلجلة.

الطالب: مهانا ومقيدا بالأغلال كعبد ذليل بل أكثر من العبيد.

الأبتر: مسلوب الإرادة جائع.

الطالب: باعوه للأجنبي من قبل الذين ادعوا أنهم حماة الوطن ورافعو شعاره الشامخ.

الراهب: أشباح ممسوخة.

العجوز 1(تضحك بحدة): ها، ها، ها.

المُعدَم: ماذا حدث لك أيتها الساحرة العجوز.

العجوز 1: جاءني المخاض، لكن ليس من الأمام...ها!

الأبتر: هل رأيتم خنزيرة كهذه، اذهبي من هنا يا مقرفة.

العجوز 1: لا، لا، كلما أرى الأشياء التي يأتي بها ذلك اللعين، تتقطع أمعائي فأضطر لرفع ملابسي، ها.

الأبتر: افعلي هذا أينما شئت، لكن ليس في هذا المكان.

العجوز 1: طبعا، طبعا، عندي صورته، ولهذا الغرض تنفعني يا أغبياء بل أكثر من أغبياء، لن أحتاج لأي شيء، ولن أدع الفرصة تضيع مني. (من آخر القاعة تتقدم العجوز 2، ساحرة أخرى عرجاء تحمل مكنسة)

المُعدَم: ما بك أيتها العجوز الساحرة؟

العجوز 1: لقد جاءني المخاض، لكن ليس من الأمام.

الأقطع: أنت خنزيرة ليس لديك شبيه.

العجوز 1: لا، لا، كلما أرى الأشياء اللعينة تتمزق أحشائي، وأضطر لرفع ثوبي، آه، آه.

الأقطع: ارفعيه حيثما شئت، لكن ليس هنا.

العجوز 1 (تهبط) لدي صورته، لدي صورته، ولهذا أستعملها أيها المغفلون، بل أكثر من مغفلين، نعم سأستعملها ولن أضيع الفرصة.

(من عمق ظلال القاعة تتقدم العجوز 2، ساحرة عرجاء تحمل مكنسة)

العجوز 2 (تصرخ): هه، هه، هوبيليبرودا، كنت أبحث عنك.

العجوز 1: انتظريني لحظة يا خنوفليسكا.

العجوز 2: أخبروني بأن الفرنسيين لم يستطيعوا أن يدخلوا، هل رأيته كيف يستشيط غضبا.

العجوز 1(تمسك بالمتراس): آه، آه، أكاد أستفرغ من الفرحة.

العجوز 2: إنها حقا لفرحة، اكتمي رغبتك قليلا يا هوبيليبرودا، فالموقف يستحق أن نرقص.

العجوز 1: لنذهب من هنا، هيا بنا.

(ترقصان وتغنيان سكادياس قشتالية، وتلوحان بالمكانس، يرافقهن عزف قيثارة الكفيف):

لم يثر الشقي صباحا

لأن المسكين انقلب إلى ضفدع

لنبتهج

سأتغوط على الضفدع

وسأتبول عليه

العجوز 2 (تعرج خائرة القوى):

يقولون إن دِبر الشقي يسع بندقية وتسعة خراطيش

إنها حقا لطرفة

لم يمسك أحد بالشقي

من حيث يجب أن يُمسك.

مصارع الثيران (يشارك بالرقصة بسيفه):

لكي أقتل الشقي

سأستخدم مهارتي في هذا الفن

لا يوجد أفضل

من هذا المكان

يا لروعته.

يجب أن أقتل الشقي

من دبره.

الفتاة (تشترك بالرقصة بسكينها):

إذا بصق ذات مرة

على ردائي

سأغرز السكين

بالشقي

يا لمتعة الرقص

فالفتاة لا تختبئ

من الشقي

العجوز 1: افلت الخيط

العجوز 2: اقطع الحبل

العجوز 1: ضفدع بدين وأكرش

العجوزتان 1، 2: شقي خراء

(يعود كل من الفتاة ومصارع الثيران والكفيف إلى المتراس، فيظلل مجددا، وبالمقابل يسلط شعاع غريب على العجوزين)

العجوز 2: أحسنت، أحسنت يا هوبيليبرودا، ما زلت تجيدين الرقص.

العجوز 1 (ساخرة): لا أجيده مثلك يا خنوفليسكا، لربما أنت أكبر مني بسنة واحدة.

العجوز 2: لقد بلغت المائة (تهمس سرا) إن المسألة يا هبيليبرودا، المسألة إنه لا يوجد عظم ناتئ في قدمي ولا زوائد جلدية.

العجوز 1: لا تكذبي يا خنوفليسكا، تظنين أنني لم أر العظم الناتئ في قدمك؟ هل نسيت أن أظافرك تقوست وأخذت تعلق بالنباتات.

العجوز 2: هذا كلام لا ينبغي أن أسمعه، إنه أمر لا يصدق.

العجوز 1: في الحقيقة إن الخطافات الطويلة لم تعد مجدية في زمن الرعب والفوضى، اجلسي هنا برفقتي، فأنت تحملين المقص دوما.

العجوز 2: نعم... لكن لأغراض أخرى.

العجوز 1: أغراض أخرى.

العجوز 2: من يدري؟

العجوز 1: أعطني إياه.

العجوز 2: لا.

العجوز 1: لا. (العجوز 2، تخرج مقصا كبيرا كمقص النباتات) لأي شيطان تستخدمين هذا؟ افترضي أن الشقي البدين ظهر الآن.

العجوز 2: سأقتله ضربا بالمكنسة... وسأفقأ عينه بها.

العجوز 1: أعرف، أعرف... لكن افترضي أنه ظهر، هكذا فجأة، بكامل معداته.

العجوز 2: سأحلق، ولهذا السبب لدي المكنسة.

العجوز 1: نعم، نعم... لكن الشروع بالطيران يستوجب الركض أحيانا، ولن تستطيعي ذلك لأن الرقص والتسابق أمر واحد.

العجوز 2: لا، لا، كل شيء إلا أن أفقد أظافري، هل أنت مخمورة يا هبيليبرودا! هل ستشكرينني عندما أقص لك شواربك أو شعيرة من هذا الثؤلول؟

العجوز 1: إنها خطوة صعبة، لكن الأمر مختلف يا خنوفليسكا. فشعيرات هذا الثؤلول تجمل وجهي، أنا مثلك، وصيفة الملكة.

العجوز 2: الملكة، الملكة، متى أستطيع أن أرى ولي العهد الدمية؟ أين سأمارس سحري هذه الليلة.

العجوز 1 (تلوح بيديها كالجناحين): قد نجد شيئا جديدا إن رحلنا، لكن لا تذهبي بي بعيدا أيتها التعيسة، أعطني هذا المقص.

العجوز 2 (تقاوم): لا، لا.

العجوز 1: سأقلم أظافرك، أو سأقتلعها كما تفعل محاكم التفتيش.

(يتناهى صوت نهيق طويل من جوف القاعة)

العجوز 2 (تصرخ): بريكو، بريكو، لقد وصلت في الوقت المناسب، أغثني.

العجوز 1 (تدفعها وتطرحها أرضا): المقص، المقص، سأقتلك، سأقطع أحشاءك، سأسمل عينيك.

العجوز 2: معتوهة، معتوهة، ثملة كمشجب متفحم.

(يظهر شخص يسير على ساقين، متنكرا بزي حمار): ما الذي يحدث، ما الذي يحدث؟ هل يمكن أن أعرف لماذا تصرخين وتخمشين بالمقص، إنها ليست ليلة شجار، رغم أنها في الواقع هي كذلك.

(تنفصل العجوزان عن بعضهما)

العجوز: بريكو، آه يا بريكو، هذه الثملة تريد أن تقلم أظافري، وأنا لا أريدها أن تفعل بي هذا، لأنني لا أرغب بذلك.

الحمار: يجب علينا أن نقتل الفرنسيين بأظافر القدم، ومن ليس لديه أظافر ليستعمل ظلفه، كحديقة الحيوانات التي ناضلت، لقد ناضل الحمار والديك والدجاجة والحصان.

العجوز 1: وإن لم تقدر على ذلك، لقد علِقت أظافرها.

الحمار: لنساعدها لأن تهبط بلا خوف، فعشرة أظافر تعني عشرة سكاكين، أي عشرة أكفان.

العجوز 1: ستقع أسيرة عند الفرنسيين ولن تستطيع أن تحلق.

الحمار: اصمتي الآن، عجوز كدودة قز وإلا انتزعت الثؤلول، إن لم تستطع أن تحلق سنحملها على ظهورنا.

(العجوز 2 تثب بمساعدة مكنستها فوق عجز الحمار، ويتواريان في جوف الصالة، وسط النهيق والضحكات. بينما العجوز 1 تواصل ضحكها ثم تختبئ في المتراس. يسلط شعاع ضياء ينور الجانب الأمامي من المشهد، ومن الجهة اليمنى، يدخل سيد الملائكة جبرائيل يلبس رداء ورديا شاحب اللون وهو يبكي، يجر خلفه جناحه المهشم.

جبرائيل: لقد فقدتها، لقد فقدتها، غابت عن ناظري، كدت أبلغها رسالتي، لينقذك الله يا مريم! كدت أبلغك، لكن ريحا شديدة عصفت بي وحجب الضباب رؤيتي. أمست كلماتي متقطعة، لينقذك الله يا مريم... أين أنت يا سيدتي؟ وإلى أين أمضي لأبحث عنك، أنا كحمامة مسكينة ضلت طريقها، مهشم الجناحين بلا هديل، وانقطع خيط ذاكرتي؟ هل أستطيع أن أتذكر الرسالة الإلهية؟ (يتهجى جاهدا ليتذكر) أه! أنا رسول حزين يمسي في الضياء ضبابا، كالذي عند بزوغ الشمس لا يبقى بين يديه سوى بلور الليل خاوياً من أي وهج! لينقذك الله يا مريم!

(يجهش بالبكاء ويغطي وجهه بيديه، يظهر من الجهة اليسرى سيد الملائكة ميكائيل يرتدي عباءة حمراء اللون قانية ويشهر بيده سيفا).

ميكائيل (يتوقف): جبرائيل! (يتقدم ليضع يده على رأسه) ارفع جبهتك يا صديقي، لِمَ تذرف هذه الدموع؟ أجبني.

جبرائيل: لا أجد أحدا لأودعه رسالتي.

ميكائيل: سيد الملائكة لا ينبغي له أن يذرف الدموع. من يقوى على رؤية الدمع يسيل على أجمل الوجوه وأكثرها رقة؟

جبرائيل: لقد كان إبليس... الأكثر جمالا.

ميكائيل: كان...هذا صحيح، لكنه أمام فيالقي سيغرق في جهنم بسيفي هذا، هو الآن أشد الملائكة خوفا.

جبرائيل: لأنك لست في محنتي التي أمر بها الآن يا ميكائيل.

ميكائيل: إنه مجرد هذيان يا صديقي المسكين.

جبرائيل: لقد أدين بحكم الحرق، وأنا حكمي سينفذ الآن، وأشعر بالخوف.

ميكائيل: حكمك؟ ما الذي تقوله، حدثني فأنا أخوك.

جبرائيل: لينقذك الله يا مريم. فالعقاب سيكون قاسيا لمن فقد طفلة كنت سأعلنها والدة للرسول، إنها المرأة المباركة بين النساء (يحمل جناحه المكسور بيده متألما) آه.

ميكائيل: ما الذي يؤلمك يا جبرائيل؟

جبرائيل: لربما لأنني لن أستطيع أن أطير أبداً، سأمكث سجينا في أرض الشياطين هذه. (يمد يده الدامية) انظر.

ميكائيل: إنه دم!

جبرائيل: لقد سقطت إلى الأبد، فجناحي مكسور تماما، عندما أحلق تسود الغبطة وتندحر الكراهية، لا أدرى ما الذي حدث هذه الليلة.

ميكائيل: عادت فيالق الشر مسيرتها فانتشرت في أصقاع المعمورة، وجلبت المضرة لأرض السلام هذه، لكن لا تخف سأحميك بسيفي، هيا بنا.

جبرائيل: لينقذك الله يا مريم، هل ستساعدني أولا على إنقاذها، (استند إلى كتف ميكائيل، مطوقا خصره، ثم يخرجان)

ميكائيل: أعلم أننا سنجدها، إنه سر.

جبرائيل: عسى أن لا تكون جراحها بليغة كجراحي، أو ربما قد ماتت، آه من ليل القتلة الأسود، أين أنا يا ميكائيل؟

ميكائيل: إنه سر، اسند رأسك جيدا إلى كتفي، واترك لي زمام قيادتك.

جبرائيل: لينقذك الله يا مريم؟

(يتواريان، يبقى المشهد معتما، تسمع صافرة إنذار تتعالى رويدا لتعلن عن وجود طائرة مهاجمة. يمر الجنديان 1 و2، ينيران الظلام بمصباح يدوي)

الجندي 1: إنه الطيران يا رفيقي، في هذه الليلة سيحدث شيء ما.

الجندي 2: أي من الأحياء حان موعد قصفه؟

الجندي 1: لا فرق بين حي وآخر.

الجندي 2: يبدو أن فيالق المتطوعين من البلدان الأخرى جاءت لتقاتل إلى جانبنا، إنهم رجال جاؤوا من جميع أنحاء العالم، عمال وفلاحون ومثقفون وفنانون....

الجندي 1: مرت ستة أيام ومدريد تتصدى لعدوان الأعداء.

الجندي 2: لكن على خطوط النار يمتزج القتال بالغناء.

الجندي 1: لا تخافي يا مدريد.

الجندي 2: لقد هبت مدريد كرجل واحد إلى الخنادق.

الجندي 2: لكن مدريد للمدريديين ، للإسبان، والعالم برمته يعلم ذلك.

الجندي 1: ماذا سيقولون عنا لو أهملنا هذا المتحف؟

الجندي 2: ستكون جريمة حقيقية لو...

الجندي 1: الشعب سيحميه، لأنه ملك له، لن يمسه أحد، سيرحلون عاجلا عن مدريد.

الجندي 2: سيكون بمنأى عن القنابل.

الجندي: لنمضِ.

(يتوارى الجنديان 1، 2، يتناهى خوار الثور، ثم يتقدم بينما يدور حوار بين ثلاثة أصوات)

الصوت 1(مندفعا ومتفائلا): إنه يدنو، سيصل الآن، إنه هنا.

الصوت 2 (النغمة ذاتها): إنه هو، إنه هو، إنه هو.

الصوت 3(متضايقا محتارا): من، من، من؟

الصوت 1: جاء مطعونا في ظهره.

الصوت 2: لكن خواره قوى ومتوثب دائما.

الصوت 3(متضايقا): لا أعرفه، لا أعرفه.

الصوت 1(مذعورا): أنت خائف.

الصوت 2: هل تخشاه.

الصوت 1: أنت ترتعش.

(يسمع صوت الخوار عن قرب)

الصوت 2: قد يصل قريبا.

الصوت 1: سيدخل الآن، سيدخل الآن.

الصوت 2: إنه هو.

الصوت 1: إنه هو بمفرده.

(يظهر شخص بمظهر عصري، يرتدي عباءة داكنة اللون، غطى وجهه بقماش داكن اللون كرأس ثور ذبيح ينزف دما، يخفيه طوال الوقت. هذا الثور شكله مقتبس من عمل لبيكاسو رسمه عام 1938

وعنوانه" الطبيعة الميتة برأس ثور" معلق على مشجب خشبي، يستطيع الممثل أن يحمله بيده. تصل شخصية أخرى من الجهة المقابلة، ترتدي أيضا عباءة لفتى يعود لعصر الرسام غويا، غطى وجهه حتى الرقبة بقبعة كبيرة نقش عليها رسم لعين. يحمل بيده شمعدانا كبيرا متقدا، يقفان على مبعدة، ينظران بصمت وريبة. بعد ذلك يدنو حامل الشمعدان من رأس الثور ليتفحصه جيدا على ضوء الشمعة).

حامل الشمعدان (بعد صمت طويل): هل أستطيع أن أقول لك ليلة تعيسة؟

حامل رأس الثور(يحركه كمن يصغي اليه): م م م م ؟

(ترتفع نبرة الصوت 1 و2 رويدا رويدا)

الصوت 1: إسبانيا.

الصوت 2: نسيج عنكبوت رقيق.

الصوت 1: منجل، فأر مسموم.

الصوت 2: عشب بري، أحشاء، عصا غليظة.

الصوت 1: ضغينة وأغنية طفل.

الصوت 2: كل شيء له صدى ومسلّ.

الصوت 1 و2: إسبانيا، إسبانيا.

الصوت 3 (باستهتار) آي، آي، آي.

حامل الشمعدان: إن الثور الذي يقتحمنا، يحتوينا ويستحم فينا، معقد وبسيط، متوهج وخافت، إنه ثور إسبانيا الأزرق.

رأس الثور: لقد عدت، وسأعود دائما، إذا وفرتم لي الحماية والمساعدة حينما يريدون قتلي.

الصوت 1: الرقة والاغتصاب.

الصوت 2: الضحك والعنف.

الصوت 1: الابتسامة والدم.

الصوت 2: المشنقة والاحتفال.

الصوت 1 و2: ثمة شيطان كبير يطاردنا بسكين، الضياء والضوء.

حامل الشمعدان: لماذا يريدون قتلي... أريد أن أفهم.

رأس الثور: ثيران كثيرة، لكن بالنسبة لي...

حامل الشمعدان: بالنسبة لك؟ من يتجرأ أن يقوم بذلك؟ لا يستطيع أحد أن يقتلك.

رأس الثور: لا يمكن قتلي، هل فهمت.

(دوي انفجارات من بعيد)

حامل الشمعدان: يريدون الدخول... هل تسمعهم؟ هل سيعودون؟

رأس الثور:

يدخلون من جديد

نعم شعب الثور سيثور

ثور إسبانيا يقتات من المراعي

يتربى في الشوارع هائجا

كأنه زوبعة من الرعب

إعصار من شعاع ولهب

يعيش الثور، يعود الثور

لا ميدان له، لا ساحة له

هناك عراقيل تمنعه

كبلوه بأغلال الحديد

لقد عاد الثور

فميدانه اليوم إسبانيا كلها.

حامل الشمعدان (يدنو أكثر لينير الرأس من جديد):

الثور، الثور، سألقي عليك الضوء، هيا بنا سأرافقك. (يسيران على مهل) الأموات، الأموات، الأموات، لا أحد يعينهم، مكدسون ولم يدفنهم أحد، أكلتهم الكلاب والفئران.... الثور!

رأس الثور (يتوقف): الثور! لكنني رجل.

حامل الشمعدان: لست متنكرا لوحدي هذه الليلة.

رأس الثور (يردد هذه الكلمات): منحتني حكومة الجمهورية لقب: المدير الجديد لمتحف الحرب، ولقبي الرسام بيكاسو.

حامل الشمعدان (محدقا به من جديد على ضوء الشمعة): عجبا! أنت كثير الشبه به، لا يمكن أن تكون شخصا آخر. (يردد نفس الكلمات) أنا اسمي غويا.

بيكاسو: أنا أراك، أنت وحدك تستطيع السير على هذه الشاكلة، يا للغرابة! (صمت وجيز ثم يمد له يده) بابلو بيكاسو.

غويا: فراثيسكو غويا.

بيكاسو: في شهر تشرين الأول لعام 1937.

غويا: في شهر أيار لعام 1808.

(يتواريان، بينما يطلق بيكاسو صوتا غريبا، ويضحك غويا بصوت عال، حاملا الشمعدان فوق قبعة التشريفات. يسمع دوي الانفجارات أشد من كل مرة، تنطلق صافرة الإنذار، كأنها ضجيج جهنمي، تنطلق أصوات صدى لمكبرات صوت ومطرقات وطيور وقدور وقيثارات وطبول وصافرات، تتناغم مع ضوضاء فوج كبير، كما في لوحة غويا–التي عنوانها "دفن السردين"، يتقدم من عمق المشهد شخص يترأس المسيرة، يرتدي قناعا ويستند إلى عامود شكله طائر قبيح يفتح جناحيه، يحملون لافتة كتب عليها: "الموت للنسر المفترس"، ومن خلفه تقرع الآلات متناقضة الأصوات تنشد أغاني شعبية:

اضربه لمجرد أن تضربه

اضربه، اضربه

اسحقه، اسحقه

الآن اسحقه

اضربه الآن، اسحقه

اضرب الطبل

ليحيَ الرقص ليمت الخائن

الأبتر: رعد وبرق، أي ضجيج هذا؟

العجوز 3: لا تتضايق أيها الأبتر، إنه مجرد صخب لمن سيحمل السلاح ولن يتعرفوا علينا ولأجل أي هدف جئنا.

الأبتر: هل يمكن أن أعرف لماذا جئتم بهذا العدد من الصافرات والمطارق في ليلة كهذه.

العجوز 3: ستتغوط لو أخبرتك.

الراهب: جئت من بالوعة جهنم، من أتباع الشيطان أيها الصنم العاق.

العجوز 3: اصمت أيها الوقور، سترقص على عقب إكليلك، وسترفع ملابسك، وستظهر عورتك، وسيخجل من يتكلم إليك.

العجوز 1: خنوفليسكا ، خنوفليسكا، أشعر بالاشمئزاز، سينفجر الثؤلول لأنني تعرفت عليها.

العجوز 2: اصبري يا هوبيليبرودا، لأن فقدانك لحبة حمص بهذا الحجم جريمة.

شاحذ السكاكين: تعالي إلى هنا، انفخي على هذا الضفدع ليلتصق بالجدران.

الكفيف: ما الذي تقولينه.

الفتاة: لينزع عنه القناع.

الجميع: ليكشف عن نفسه، ليكشف عن نفسه.

الطالب: كفى، ليتكلم الأبتر.

مصارع الثيران: أريد أن أقول شيئا.

المُعدَم: سأطعن لسانك بسكينك.

العجوز 1: ها، ها، سيكون العمل الوحيد المفيد في حياتك.

(يضحك الجميع بينما يتصاعد صوت الصافرات)

الأبتر: دعني أتكلم، التزموا الصمت، إنها ليلة حرب.

العجوز 3: لقد فهمتك، بأمرك.

الأبتر(متحمسا): انزعي هذا القناع.

العجوز 3: سأطيعك يا سيدي القبطان الكبير. (تشيح عن نصف القناع فيبدو وجه الساحرة مرعبا، ثم يسود صمت) ألا تعرفينني، أنا الملكة؟

العجوز 1:انغورد دغوندا، انغورد دغوندا، هذا ما طرأ على بالي، لكن ما هذا الجمال الذي أتيت به، أيها القبطان احترم ملكتك.

الأبتر: كفي عن إثارة هذه الفوضى، يا انغورد دغوندا، أو كما تناديك الشياطين، وأنت يا هبيليبرودا ماذا تخبئان في ذلك الكرسي المتهرئ؟

العجوز 3: لدينا رخصة من القبطان لكي نكشف النقاب، وقد تحمسنا لذلك.

(يسود صمت، يترك الأبتر المتراس، ثم يزيح الخرقة التي تغطي التمثال، فتبدو بشكل فاضح كلعبة قديمة صفراء الوجه، شعرها أشعث وترتدي بزة سجين قديمة)

الأبتر (مذهولا): زوجة دون كارلوس الرابع، الملكة ماريا لويس.

الجميع (يهمسون): العاهرة العظيمة. (يتوجه الأبتر نحو الثور الذي يطلق خوراً ويتراجع إلى الوراء)

الأبتر: ماذا حدث لك يا جبان؟ تتظاهر بالشجاعة، هه؟ اصمت... (يمسك به من قرنيه الملويين ويجبره لأن يركع، ثم يزيح الغطاء عن التمثال الذي يمتطي الثور، فيظهر ضفدع قبيح، له ملامح إنسان يرتدي بزة عسكرية، يضع سيفا في حزامه ويحمل أوسمة) ما هذا؟ هل هو نابليون بونابرت (يسود صمت) إنه دون مانويل كوديو! (ساخرا) أمير السلام القذر!

الجميع (بصوت منخفض): عشيق الملكة.

صوت ما: الموت للخونة.

آخر: ليعدموا جميعهم.

الجميع: الموت، الموت لهم.

الأبتر: شعب مدريد، تطوع لحماية هذا المتراس، سيعلن ذلك بعد قليل، يجب أن لا نضيع الوقت، ستتم محاكمتهما ولينفذ بهما حكم الإعدام فورا، لكن ليوقع كل منا بموافقته على الحكم، وليقل كل منهم ما يريده قبل أن ينفذ الحكم بالزوجين الخبيثين، اللذين توجا نفسيهما بجوع إسبانيا ودمائها.

الطالب (من أعلى الأكياس، بحذاقة وفصاحة): سيدة أكبر ملك بقرنين في تاريخنا، أمير السلام، أنت أيها السيد المقيت المنافق، أنت الغازي والمغزي، والمُستعمر والمستعمَر، فرنسي شرير وإسباني أكثر شرا، اتفقتما لتستعبدا وتهينا أكثر شعوب الأرض صلابة ورجولة، شعب ينبض بالحب من أجل الحرية والاستقلال، تذكروا نومانثيا والغدر الروماني، والخائن ويتز ودون بلايو الكبير، ونصر كوبادونكا.

صوت ما: إنه أمر جيد، جيد، ليتبعه الآخرون، إنه ليس الوقت المناسب للجدل.

الطالب (غصت كلماته): أطالب بإعدامهم، نعم أطالب بسحقهم.

أصوات: إعدامهم، إعدامهم.

شاحذ السكاكين: أيها المواطنون، ذات صباح وجدنا أنفسنا بلا حاكم، أصبحنا شعباً مُستعبدا مُحاصرا بالغزاة، سلبوا إرادتنا، هؤلاء وآخرون مثلهم، هدروا دماءنا وهم يسكنون القصور برغم أنهم أقسموا أن يكونوا حماتنا المخلصين، لكنهم هرعوا ليجثوا أمام جلادنا، أطالب بإعدامهم كعقاب لهم، إن من يخاطبكم هو أحد الذين أعدمهم المارشال مورات.

أصوات: ليموتوا، ليموتوا.

الفتاة (بكبرياء ساخرة، تنحني أمام دمية الملكة بوقار): سيدتنا المبجلة: رحلة سعيدة. لن يموت الشعب بمفرده، لقد حان دوركم وأنت تطوقين عشيقك بذراعك، لن يكون موتكم مشرفا بطعنة سكين نظيفة أو بطلقة رصاصة من بندقية قديمة، لأن هذه الطريقة بالموت هي لنا نحن الرعاع، أنتم يا جلالة الملكة الموقرة، أنتم يا سعادة الملكة ستعلقان في الأعلى كما يليق بكما.

أصوات: لنعلقهم، لنعلقهم.

العجوز 1 (تتجه نحو العجوز 3 لتركع أمامها): أنت تستحقين ذلك، نعم، أنت الآن ملكة إسبانيا الحقيقية، لقد توفقت بصيدك لعصافير سمينة، سأقبل قدمك بتواضع، لأن هذا سيريحك.

مصارع الثيران: (يثب ليطردهم): اتركوني لوحدي، سحقا للناس الرعاع (تطلق إحدى المكبرات صوتا كأنه صوت نفير المصارعة، يتقدم مصارع الثيران، يحمل بيده السيف ويضع سترة صغيرة على ذراعه ثم يتوجه نحو تمثال الملكة ماريا لويسا، ليحييها بقبعته ويمنحها سيفه) ولية عهد الخراب، عشيقة القذر سأترك مصارعة الثيران إن لم ألق به إلى الجحيم.

(يسود صمت، يستأنف حديثه مع الشيطان الثور) هه يا ثور، هه، هه، هيا بنا، تعال بهدوء واستقامة، حذار أن ترمي بي للضفدع لأنني سأطعنك (يطلق الثور صرخة قوية مستفزة ثم يمر من تحت سترته)

الجميع: أوليه

مصارع الثيران (يصارعه بالقماش): تقدم، بخطواتك المتخاذلة المتعجرفة، أيها الماكر، بقرنيك أيها النذل، إنك خائن مجرم بشكل مفضوح.

الجميع: أحسنت.

(ينتصب مصارع الثيران بجسده ليبادر بقتله، ثم يسود صمت)

العجوز 3(ساخرة): هبيليبرودا، خنوفسكا، اسندا الملكة، تشجعي يا ابنتي، لا تفقدي وعيك، فكل من عشق حمارا مات بهذه الطريقة.

مصارع الثيران: أيها الثور، هه.

(يلوح بسيفه في الهواء، فوق رأس الشقي، فيتدحرج رأس الثور أرضا، بينما يلتصق الضفدع بالجدار، وسط صخب وجلبة الحدث)

العجوز 3(لدمية الملكة): كيف حالك؟ لقد تدحرج مانويلك الشجاع، تقدمي لتعانقيه، فعناقك له في هذه اللحظة أشد لذة من لذة نومكما على السرير الملكي. (ينهض الثور، ترفع العجوزان 1 و2 دمية الملكة ثم يسيرون بها ليضعوها على ظهر الضفدع إلى جانب الثور ويربطانهما وهما متعانقان) الآن أنتما سوية كما كنتما أمام الشعب ولم تكن مجرد تقولات.

واحد من الفوج (يرمي المبولة التي يحملها على رأسه ويضعها فوق رأس الضفدع): كنت تتطلع إلى العرش؟ أنت الآن تملكه، وكذلك ستنفعك إذا شعرت بمغص في أمعائك.

العجائز 1 و2 و3 (يحنين رؤوسهن احتراما): من أجل جلالة ولي عهدنا الجديد.

صوت ما: الموت لملك إسبانيا الجديد.

آخر: لنحملهم إلى المشنقة.

(بين تعالي الصيحات ودوي صوت الموسيقى يبرز الكفيف من بين المتراس)

الكفيف (يعزف على قيثارته، بينما يرقص المعدمون على أنغامه):

السيدة ولية عهدنا

بكرشها الدنيء

ستصبح سيدة

والملعقة بفمها

عسى أن تشل يدها

فالشعب هو ولي العهد

متضرر من الفوج (يغني على صوت القيثارة):

أيها الشيطان

أيها الضفدع اللعين

فتحة سروالك لا تساوي ولو قرادة

ليسقط هذا السيف

لأنه لا يساوي شيئا بيد الضفدع الملعون

أصوات: ليسقط، ليسقط

الراهب (بنغمة واعظة): أيها الراشدون المتباهون، لا تتأملوا أن نفك وثاقكم، اذهبوا بلا رحمة إلى شراشف جهنم.

الأبتر: صمت، صمت، لقد حان دوري أيها الجندي، حماة هذا المتراس المدريدي الكبير: شعب فقير ومسحوق، لقد سمعتم، هل أنتم تؤيدون هذا الحكم؟

الجميع: ن.. ن... ن... نعم.

الأبتر: لقد ظفرتم بهم، هذا ما بقي لنا منهم: دميتان متغضنتان من الأسمال، لكنهم خلفوا وراء ظهورهم، إهانة إسبانيا وتسليمها للطامع الأجنبي، ودمروا أرضنا، ومحصولنا وحصادنا، واستعبدوا نساءنا وأطفالنا، وشيدوا السجون ونفذوا الإعدامات، من سيجرؤ أن يطوق عرش ملوكنا ويعلق عليه لافتات باسم الجنرال الأكبر "أمير السلام"؟ إنه هو من اغتصب السلام، كانت مؤامرة قبيحة لشخص مقيت دمر الشعب وهدر دمه.... لكن سيبزغ الفجر. أسرعوا، علقوا عاليا هذين الرمزين العفنين للعار والطغيان، لن يعودا أبدا، لن يطأا هذه الأرض إن حصنّا متاريسنا.

(تقرع الطبول بإيقاع خفيف، يسير التمثال الذي يرتدي قناعا ويحمل الراية نحو المتراس، ومن ورائه يسير الثور برفقة الدميتين، محاطا بالعجائز الثلاث يحملن مكانسهن ويتبعهم الأبتر والراهب وبقية شخصيات اللوحة، يسود صمت يشوبه قرع الطبول ثم يبدأ دوي المدافع وانفجارات القنابل دون أن يؤثر ذلك على تقدم الحاشية.

عند أعلى المتراس تعطي العجوزان 1 و2 مكنستهما للأبتر، يسمع صوت هدير محركات الطائرات فوق سقف المتحف، تقص العجوز 2 شعر الملكة المسترسل من الحبال، يضع الأقطع الحبل في عنقي الملكة ماريا لويسا والجنرال الأكبر عشيقها ثم يعلق جسديهما بالمكنسة المثبتة في أكياس الرمل.

تنطلق من حناجر الجميع جلبة ممتزجة بالفرح والدهشة، بينما القنابل تسقط على الصالات الأخرى من متحف البرادو، يلج نور الصباح من وسط الزجاج المهشم، من فتحة في سقف الصالة. يقف الأقطع الرأس على حافة المتراس، في الوقت الذي يشتد فيه القصف، ثم يسدل الستار ببطء)

المقطوع الرأس (يتلو أبيات شعر لانطونيو ماجادوا):

مدريد! مدريد!

ما أجمل نغمة اسمك

صخرة تتكسر عندها كل أمواج إسبانيا

الأرض ترتعش، والسماء ترعد

وأنت تضحكين والرصاص في الأحشاء.